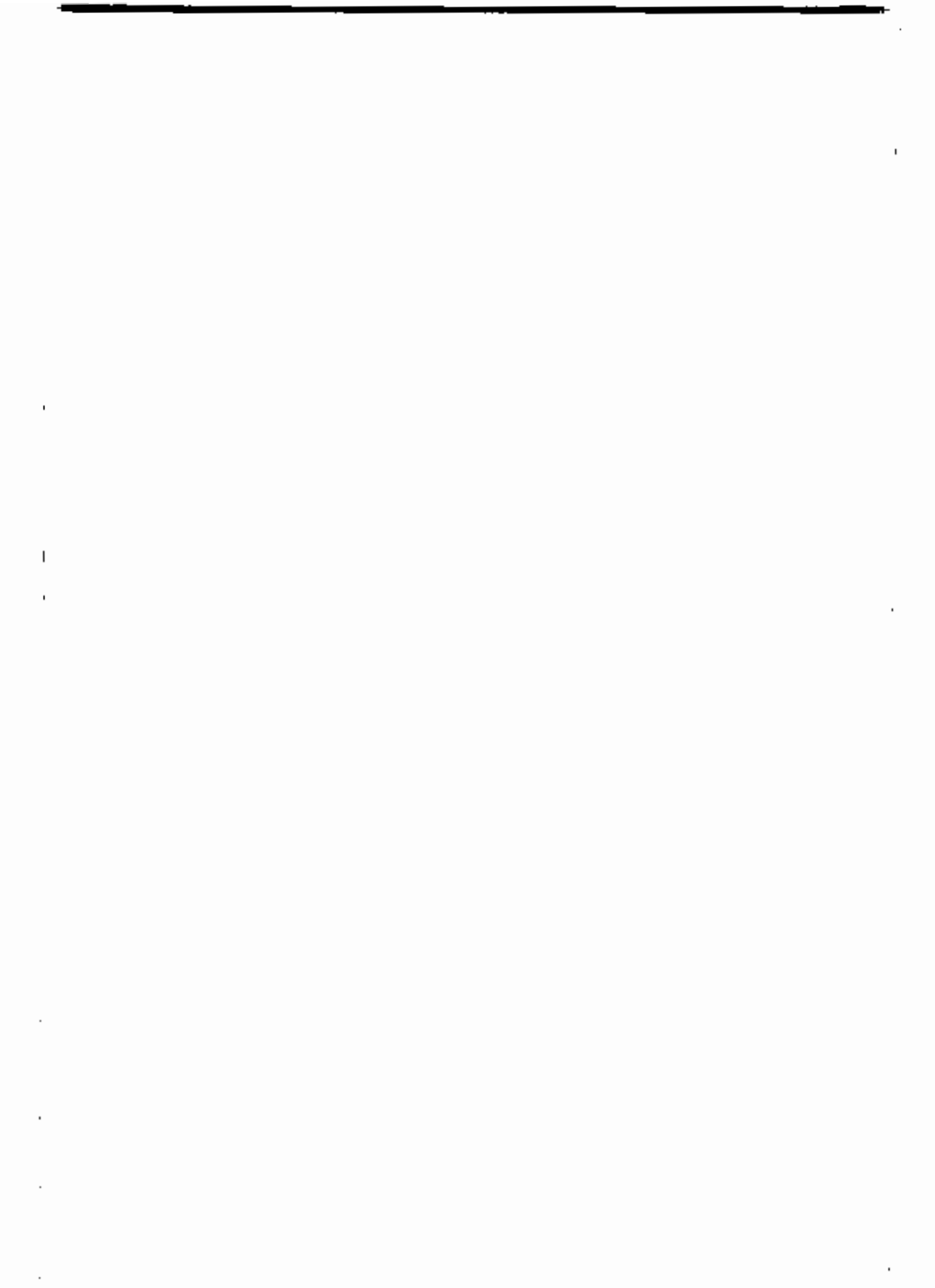


الصراع العثماني المملوكي في مصر ونتائج

إعداد

**الدكتور ، سعيد بن سعد سفر الفامدي
الأستاذ المشارك في التاريخ الحديث والمعاصر
قسم التاريخ والحضارة
كلية العلوم الإجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**

١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،

إنَّ الحديث عن قيام الدول وسقوطها أمر هام جدير بالبحث والدراسة ففيه
عبرة وعظة ودروس كبيرة .

وقصة قيام الدولة العثمانية ، ودخولها إلى البلاد العربية ، وسقوطها بعد
ذلك . لم تحظ بدراسة علمية وثائقية لأسباب كثيرة منها بعد المصادر الأساسية
والوثائق العثمانية عن أيدى المؤرخين والدراسين .

ودخول الدولة العثمانية إلى البلاد العربية وصراعها مع الدولة المملوكية أمر
هام جدير بالبحث والدراسة لا سيما وأنه بداية لتاريخ العرب الحديث عند معظم
المؤرخين .

ومن خلال دراستي للصراع العثماني المملوكي في مصر ونتائجه على الوطن
العربي لفت نظري أمر هام ، وهو خلر معظم الكتابات التاريخية من الوثائق
العثمانية . واعتمادها على مصادر قليلة ، ومراجع كثيرة نقلت عن بعضها البعض
حتى ضاعت الكثير من الحقائق التاريخية الصحيحة ، وصارت معظم الكتابات
التاريخية في اتجاهين متعارضين . الأول منهما : التعصب الأعمى للماليك وتبرئة
ساحتهم من الأخطاء والعيوب والمغالاة في سرد إيجابياتهم . والإجحاء الثاني :
التعصب الشديد للدولة العثمانية في اتجاهها إلى البلاد العربية . وألقي أصحاب
كل اتجاه اللوم والمسؤولية على الاتجاه الآخر .

لهذه الأسباب كلها قررت إختيار موضوع ، الصراع العثماني

الملوك في مصر ونتيجة « لعلي أسد فجرة في هذا المجال . وأوضح بعض الحقائق التاريخية عن هذه الفترة من تاريخ البلاد العربية من واقع الوثائق العثمانية وأجلي النصوص والملابس التي أبدت بعض المؤرخين عن الصواب . وهذا ليس دفاعاً عن طرف علي حساب الطرف الآخر ، وإنما هو إحقاق للحق ودفع للباطل إن شاء الله تعالى .

وكان إعتماذي الأساسي في هذا البحث علي الوثائق العثمانية المحفوظة في المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء . إستانبول.

BASBAKANLIK ARSIVI GENEL MUDURLU

وهي مصنفة كما يأتي :

MÜHİMME DEFTERLERİ : وثائق دفاتر المهمة :

- ١ - دفتر المهمة رقم « ٥ »
- ٢ - دفتر المهمة رقم « ٦ »
- ٣ - دفتر المهمة رقم « ٧ »
- ٤ - دفتر المهمة رقم « ٨ »
- ٥ - دفتر المهمة رقم « ٩ »
- ٦ - دفتر المهمة رقم « ١٠ »
- ٧ - دفتر المهمة رقم « ١٣ »
- ٨ - دفتر المهمة رقم « ١٥ »
- ٩ - دفتر المهمة رقم « ١٦ »

وقد اعتمدت في هذا البحث علي إثنين وثمانين وثيقة تركية لم تنشر مأخوذة من دفاتر المهمة المذكورة آنفاً . وتتضمن هذه الوثائق مراسلات وتقارير بعث بها السلطان سليم وهو في الشام ومصر إلى ابنه وولي عهده

سايمان (القانوني) في إستانبول يصف فيها حروبه مع الماليك ، ويصف فيها جيشه في أثناء المعارك ، وجيش خصمه ، وحالة البلاد من كافة النواحي ، وبعض هذه الوثائق عبارة عن مراسلات بين السلطان سليم وأمير دمشق وقاضي القضاة فيها يصف فيها لحركاته ولحركات خصمه في مصر بكل دقة . والبعض الثالث تقارير بعث بها الصدر الأعظم وبعض القادة العسكريين والوزراء إلى مقام انصدارة العظمي في إستانبول ، وفيها وصف دقيق وشامل لجزريات الأحداث في مصر .

وهذه الوثائق لا غنى عنها لأي باحث أو مؤرخ يكتب عن تلك الفترة فهي تتضمن وصفاً دقيقاً وشاملاً لشخصيات قادت تلك المعارك ولعبت دوراً كبيراً علي مسرح الأحداث ، وتتصف معظم هذه الوثائق بالواقعية والثقة ومن هنا تبرز أهميتها في البحث التاريخي .

كما اعتمدت - إلى جانب الوثائق - علي بعض المصادر العربية المعاصرة لتلك الفترة مثل :

ابن إياس ، المتوفي سنة ٩٣٠ هـ / ١٥١٤ م	بلاتع الزهور في وقائع الدهور
ابن زنبيل ، المتوفي سنة ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م	آخر الماليك « واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني »
ابن طولون ، المتوفي سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م	مفاكهة الخللان في حوادث الزمان
ابن الحنبلي ، المتوفي سنة ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ م	در الحبيب في تاريخ أعيان حلب .

واعتمدت أيضاً علي بعض المراجع للموازنة بينها وبين الوثائق والمصادر المعاصرة .

وكنيت قد تحدثت في بحث سابق^(١) عن نشأة الدولة العثمانية وفتوحاتها في شرق أوروبا ، والصراع العثماني الصفوي ، والعلاقات العثمانية المملوكية ، واستنجاه القوي الإسلامية في شمال إفريقية بالدولة العثمانية .

وقد حصرت حديثي في ذلك البحث . فيما يخص العلاقات العثمانية المملوكية . عن الأسباب الكثيرة التي أدت إلى قيام حرب بين الدولتين المسلمتين . ومن تلك الأسباب التي فصلت القول فيها :

الخطر الشيعي من الشرق ، والخطر البرتغالي النصراني من الغرب ، الذي كان يهدف إلى الوصول إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، والقدس الشريف . وعجز الدولة المملوكية عن حماية تلك الأماكن المقدسة من تلك الأخطار ، كما تحدثت عن مشاكل الحدود بين الدولتين ، وبخاصة إمارة البستان . ذو القادر . ولجوء بعض الأمراء الخارجيين علي السلطان العثماني إلى مصر . مثل الأمير جم أخو السلطان بايزيد الثاني . وإيواء المالِك لهم وأستخدامهم عنصر شغب داخل الدولة العثمانية . وتحدثت أيضاً عن التحالف المملوكي الصفوي وأثره السيء في نفس السلطان سليم . كما أن موقف السلطان المملوكي قانصره الغوري المتردد في فترة أزمة العلاقات العثمانية الصفوية قد أساء إلى السلطان سليم ، وذكرت أيضاً عن تلك الأسباب ما أدعاه السلطان سليم عن قيام دولة المماليك بإعتراض طريق الإمدادات والتموين الموجه إلى القوات العثمانية في فارس .

(١) د . سعيد سعد القاسمي : دخول الأقطار العربية في حوزة العثمانيين وزيادة الإجماع الإسلامي . بحث منشور في الكتاب السنوي لقسم التاريخ والحضارة . كلية العلوم الإجتماعية . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . السنة الأولى . العدد الأولي . سنة ١٤٠٨ هـ . ١٩٨٨ م .

وما قيل عن إستيلاء الغوري على الهندايا التي أرسلها أمراء الهند إلي سليم . وإستيلاء السلطان المملوكي قايتباي من قبله علي بعض الهندايا المرسله إلي السلطان بايزيد الثاني . وكذلك شكوي قانصوه الغوري من أن سليما عمل علي وقف عملية تصدير الرقيق إلي مصر . وهو أمر خطير بالنسبة للدولة المملوكية . وبالإضافة إلي ذلك فقد تحدثت عن رغبة الدولة العثمانية في التشرف بخدمة وحماية البلاد المقدسة ، ثم أشرت إلي بعض الأسباب الاقتصادية التي أسهمت بدور - ضعيف - في إجماع الدولة العثمانية صوب المشرق العربي .

أما هذا البحث الذي أقدمه فقد حصرتة . كما أشرت سابقاً . في الصراع العثماني المملوكي في مصر ونتائجه . ولم أتحدث عن بداية العلاقات بين الدولتين قيل بدء الحرب لأني قد تحدثت عنها . ولا أريد التكرار . والله من وراء القصد .

وصلني الله علي سيدنا محمد وعلي آل وصحبه أجمعين .

الصراع العثماني المملوكي في مصر ونتائجه

- ١ . الزحف العثماني علي مصر .
- ٢ . معركة الريدانية .
- ٣ . معارك القاهرة .
- ٤ . معارك الجيزة .
- ٥ . معارك النيل .
- ٦ . معركة دهبور .
- ٧ . إلتجاء طومان باي إلي قبيلة محارب .
- ٨ . إلقاء القبض علي طومان باي وإعدامه .
- ٩ . وصول الأسطول العثماني إلي الإسكندرية .
- ١٠ . قواعد الحكم العثماني في مصر .
- ١١ . عودة السلطان سليم إلي إستانبول .
- ١٢ . أسباب سقوط المماليك وانتصار العثمانيين .
- ١٣ . نتائج دخول الأقطار العربية في حوزة العثمانيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الزحف العثماني على مصر

بعد إنتصار السلطان سليم الأول بجيوشه علي المالك في موقعة « مرج دابق »^(١) والتي علي أثرها خضعت بلاد الشام للحكم العثماني. قرر السلطان سليم الزحف علي مصر بعد أن فشلت كل المفاوضات التي بذلها مع السلطان المملوكي الجديد طومان باي ، وفي نفس الوقت أراد السلطان سليم أن يستغل الغرضي التي كانت سائدة في البيت المملوكي حول إعتلاء العرش ، كما ذكر السلطان سليم الأول في رسالته التي بعث بها إلي ابنه وولي عهده سليمان القانوني^(٢) . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فقد كانت الأوضاع في مصر مضطربة ، بسبب إصرار طومان باي علي عدم توليه السلطة رغم إصرار بقية الأمراء علي توليه . وأستمر تمنعه لمدة خسين يوماً ، وقد يكون السبب في ذلك إحساسه بثقل المسؤولية ، لا سيما وأن الجيش العثماني علي أبواب مصر ، أضف إلي ذلك فراغ خزانة الدولة المملوكية من الأموال وخوف طومان باي من غدر الأمراء به ، واثارتهم للفتن وثورتهم عليه ولكنه قبلها في نهاية الأمر تحت ضغط الرأي العام عليه وبخاصة العلماء في مصر وفي مقدمتهم العالم أبو السعود الجراحي الذي كان من مشايخ الصوفية ، وكان له منزلة خاصة لدي سلاطين المالك ، فقبل السلطان طومان باي

(١) سبق أن تحدثت بالتفصيل عن هذه المعركة وأسباب الحرب بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية في بحث منشور في كتاب قسم التاريخ السنوي العدد الأول عام ١٤٠٨ هـ .

(٢) داتر المهمة رقم ٥١ (وثيقة رقم ٢١١٢) تاريخ ٩ من القعدة سنة ٩٢٢ هـ من السلطان سليم إلي ابنه - ولي عهده - سليمان (إستانبول) وثيقة رقم (٢١١٤) تاريخ ١٠ من القعدة ٩٢٢ هـ نفس المرحله وانظر إلي .

أمر السلطنة في مصر ، واجتمع الأمراء - الماليك حوله بعد أن أقسموا على المصحف الشريف على طاعته وعدم الغدر به والكف عن ظلم المسلمين (١) .

كما بايع أمير المؤمنين يعقوب الذي كان يحمل تفويضاً من ابنه الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي خرج إلى الشام مع السلطان قانصوه الغوري ، وانضم إلى السلطان العثماني سليم بعد مقتل الأول في مرج دابق . وهذه البايعة تولي طومان باي السلطنة في ١٤ رمضان ٩٢٢ هـ / ١١ أكتوبر ١٥١٦ م . وعمره آنذاك ٣٨ سنة وخطب له علي المنابر . وفرح الناس بسلطته وكان محبوباً لدى عامة الناس لأنه كان لين الجانب ، متواضعاً غير متكبر ولا متعجبر علي عكس معظم سلاطين الماليك (٢) .

ما أن تسلم طومان باي مقاليد الحكم حتي وقع علي كاهله عبء الدفاع عن الإقليم المصري ، وخاصة بعد الإتهيار الذي أصاب الجبهة المملوكية في الشام مما أدى إلي صعوبة إعادة تنظيم القوات المملوكية ، وبدأ طومان باي حكمه بإستقبال العديد من الأمراء الماليك العائدين من ميدان الهزيمة بالشام ، وكان علي رأسهم جان بردي الغزالي نائب حماء وصهر السلطان طومان باي .

وأعلن السلطان طومان باي الإستعداد العام ، وقام بتفقد الجيش بنفسه ، وعين الأمراء والقادة العسكريين في المناصب المختلفة كما قام بتعيين جان بردي

(١) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (٢١ . .) تاريخ ٢٧ رمضان ٩٢٢ هـ من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلي السلطان سليم في بلاد الشام .

واين ياس ، بدائع الزهور في رقائق النور . طبع المطبعة الكبرى الأميرية بصر . الجزء الثالث ، الطبعة الأولى سنة ١٣١١ هـ ، ص ٦٩ .

(٢) جلال يحيى ، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، طبع المكتب الجامعي الحديث بالإسكندرية ، ١٩٨٢ م ، ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .

عبد النعم ماجد ، طومان باي آخر سلاطين الماليك في مصر ، مطبعة الأنجلو المصرية ١٩٧٨م ص ٤٢ .

يذكر ابن إياس في تاريخه إن السلطان سليم أوفد وهو في القنيطرة يوم الخميس ٢٤ ذو القعدة ٩٢٢ هـ / ١٨ ديسمبر ١٥١٦ م . مراد البحرسي مبعوثاً من قبله وحملته رسالة إلى طومان باي . ولما وصل المبعوث وسلم الرسالة إلى السلطان المملوكي اشتد غضب ذلك السلطان لما فيها من الإهانة البالغة التي مست كرامته وعزته . وأمر بقتل المبعوث العثماني (٢).

بينما يذكر ابن زنبيل في تاريخه أن السلطان سليم أوفد ثلاثة رسل وحملهم رسالة إلى طومان باي . فوافق الأخير علي محتواها عندما اطلع عليها . لما فيها حقن لدماء المسلمين . ولما بلغ الخبر للأمير المملوكي علان اشتد غضبه وقتل المبعوثين الثلاثة (٣).

والذي أرجحه أن ما ذكره ابن زنبيل هو الصواب لأنه عاصر تلك الأحداث وعاش في جوها وشاهد الحوادث فيها . بعكس ابن إياس الذي عاصر تلك الأحداث وهو في مصر وكان في آخر عمره حيث توفي سنة ٩٣ هـ / ١٥٢٤ م . وكان يعتمد في كتاباته علي ما يرويه له أصدقاؤه . والشاهد ليس كالمسامع وإن اتفقا في المعاصرة .

وقد ورد في هذه الرسالة التي بعث بها السلطان سليم إلى طومان باي في

- (١) ودنغر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (٢١ . ٥) تاريخ ١٢ شوال سنة ٩٢٢ هـ من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلى السلطان سليم في دمشق وثيقة رقم (٢١ . ٧) تاريخ ١٢ شوال ٩٢٢ هـ من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلى السلطان سليم في دمشق ابن إياس . المصدر السابق . ج ٣ ص ٦٩ . ٧٢ .
- (٢) ابن إياس . المصدر السابق . ج ٣ ص ٨٣ .
- (٣) ابن زنبيل . آخر الممالك . واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني . تحقيق عبد النعم عامر . القاهرة ١٩٦٢ م . ص ٤٢ و ٤٤ .

« ... وإني أخذت المملوكية - بنسب أملاك الدولة المملوكية - بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان القوري فأحملني خراج مصر في كل سنة كما كان محمد الخلفاء ببغداد . . أنا خليفة الله في أرضه وأنا أولي منك بخدمة الحرمين الشريفين ... وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة في مصر بأسنا وكذلك الخطبة وتكون نائب عنا بمصر ، ولك من غزاة إلي مصر ولنا من الشام إلي الفرات . وإن لم تدخل تحت طاعتنا ادخل إلي مصر واقتل جميع من بها من الأتراك (الشراكسة) (١١) .

علم السلطان سليم بما آل إليه مصير رسله الذين أُرْفِدَهم إلي مصر بالرسالة المذكورة قصم علي السير إلي مصر لإزالة الوجود المملوكي بها وضماها إلي أملاك الدولة العثمانية التاسعة . ولذا أُرْسِلَ في استدعاء خاير بك (٢) . واستشاره في الأمر . فعرضه خاير بك علي السير إلي مصر وإسقاط الدولة المملوكية ، إلا أن

(١١) أنظر النصر الكامل لرسالة السلطان سليم إلي طومان باي في الوثيقتين التاليتين :

دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (٢١٢٧) ٢٨ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ .

لم يذكر اسم المرسل والمرسل إليه .

وثيقة رقم (٢١٣٠) ٢٨ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ .

لم يذكر اسم المرسل والمرسل إليه .

(٢) خاير بك : أمير مملوكي يشغل منصب نائب حلب ، وكان يتولي قيادة الجيوش السلطان قانصوه الغوري في معركة مرج دابق . كان له دور كبير في هزيمة المماليك في هذه المعركة . حيث أشاع أن السلطان القوري أمر أتباعه بقطع القتال حتى يقتل القرائص وحدهم ، وهم المماليك القدماء ، وبسبب هذه الإشاعة نثرت حمة القرائص وتوقفوا عن القتال ، وأشاع كذلك أن السلطان القوري قد قتل ، ولذا خاير بك وأتباعه بالفرار من المعركة ، وبذلك ساعد العثمانيين علي تحقيق النصر بخيائته هذه . وقد أنضم إليهم بعد ذلك وعينه السلطان سليم نائباً علي مصر عندما رجع سليم لبلاد

السلطان سليم لم يكتف بهذه الثورة فاستشار الصدر الأعظم سنان باشا فأشار عليه بعدم الإقدام علي معاربة المماليك والدخول إلي مصر ، لأن ذلك سيعرضهم إلي مشكلات لا حصر لها قد تؤدي بهم إلي الهلاك والدمار . لكن السلطان سليم لم يقتنع بهذه الثورة وبعد تداول الأمر مع عدد من الأمراء العثمانيين والقادة العسكريين الذين أجمعوا علي وجوب إسقاط الدولة المملوكية في مصر ، تحرك السلطان سليم بجيشه قاصداً مصر وعبر وادي كنعان يوم الجمعة ٢٥ ذي القعدة / ١٩ ديسمبر من السنة نفسها ، واحتل في طريقه مدينة « صفد » وعيّن عليها ابن المنتصر (١) .

كما تحرك الصدر الأعظم « سنان باشا » علي رأس أربعة آلاف جندي إلي غزة ، وجرى معركة حامية بينه وبين الجيش المملوكي بقيادة " دولة باي " نائب غزة بالقرب منها ، وكان ذلك يوم الجمعة ٢ ذي الحجة / ٢٦ ديسمبر ، واستمرت هذه المعركة من الصباح إلي ما قبل الغروب وكان النصر فيها حليف الجيش العثماني وقتل في هذه المعركة الكثير من بينهم " دولة باي " ونائب الإسكندرية وجماعة من الأمراء المماليك (٢) .

لم يتحرك المماليك لدفع الخطر عنهم إلا في أواخر ديسمبر سنة ١٥١٦ م حيث خرجت حملة بقيادة « جان بردي الغزالي » لكنه لما رأى أن العثمانيين استولوا علي غزة تركها متجهاً شمالاً حيث تظاهر بإشتباك مع العثمانيين في معركة تشيلية قرب " بيسان " (٣) ، وأوهم المماليك أنه تعرض للهزيمة فيها ، وذلك حتي يسبك

(١) إبراهيم العبيدي ، لئلا العتبان من مفاخر دولة آل عثمان ، طبع في مصر سنة ١٣١٧هـ ، ص ٦٠ و ٦١ .

(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخللان في حوادث الزمان ، القسم الثاني ، تحقيق « محمد مصطفى » ، طباعة الدار المصرية ١٩٦٤ ، ص ٤٤ .

(٣) بيسان : مدينة بالأردن تقع بين حوران وفلسطين .

وفي يوم الجمعة ٩ ذي الحجة ٩٢٢ هـ / ٢ يناير ١٥١٧ م رحل السلطان سليم إلى غزة . وانضمت تحت قيادته كل الفرق التي كانت خاضعة للمصدر الأعظم "سنان باشا" وأقام فيها السلطان سليم ستة أيام احتفل فيها بعيد الأضحى المبارك وأخذ يستعد للتحرك صوب مصر (١) .

بلغت الأخبار طومان باي فأخذ يعد العدة ويجهز الجيوش للقاء القوات العثمانية . لكن الماليك في ذلك الطرف العصيب أظهروا الكثير من الإستهتار والإستهانة بالموقف . وتخاذلوا ورفضوا الخروج ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وصل بهم الأمر إلى التطاول على سلطانهم " طومان باي " ولكن ذلك السلطان تجاهل ما سمعه . وأتبعهم على موقفهم المتخاذل ، وانشغالهم بالفوضى والفن مما أتاح المجال للجيش العثماني باقتحام الحدود المصرية (٢) .

خرج طومان باي يريد " الصالحية " ، وما أن وصل الريدانية الواقعة خارج أسوار القاهرة من ناحية باب النصر والممتد حتى جبل المقطم ، حتى عسكر بها رغماً عنه . عندما رفض جنوده التحرك منها فأضطر « طومان باي » إلى تحصين الريدانية ، وحفر بها خندقاً على طول الخطوط الأمامية ونصب المدافع عليها . وصف حولها العربات الخشبية التي صنعها في انقلعة . وأمر بالمنااة في الفاء لأرباب البضائع ، من الخازين والجزارين ... بالتحول ببضائعهم إلى المعسكر الذي أقامه حتى يبيعون فيه للجنود ، وبذلك نشأت هناك سوق كبيرة وعلاوة على ذلك أهتم " طومان باي " بإقامة حائط يستر به المدافع التي نصبها في الريدانية ، حتى

(١) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٢٢٢٩) وتاريخ ١٢ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من المصدر الأعظم سنان باشا إلى مقام الصلابة العظمى في استانبول .

(٢) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٢٢٢٧) وتاريخ ١٣ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ (لم يذكر اسم المرسل الي المصدر الأعظم سنان باشا غزة .

قيل أنَّ السلطان « طومان باي » كان يحمل بنفسه الحجارة مع البنائين (١).

بالرغم من هذه الاستعدادات الضخمة إلا أنَّ المالك كانوا يحسون بضعفهم ، وكان بعضهم يتسلل ليلاً إلى القاهرة للسيت فيها . ولهذا عاني طومان باي المتاعب في سبيل إعداد الجيش وتجهيزته . أما السلطان سليم فواصل سيره نحو مصر حتي وصل إلي خان يونس يوم الجمعة ١٦ ذي الحجة / ٩ يناير ١٥١٧ م ومنها المجده إلي العرش (٢) ومنها إلي " الصالحية " وأقام بها يوماً ، ثم أكمل سيره إلي بلبيس (٣) حتي وصلها يوم الأحد ٢٥ ذي الحجة ، ومكث بها مدة يومين . وأثناء إقامته بها وفد عليه « أحمد بن بقر » شيخ بني " واتل " ومعه أولاده (٤) ليعلن تهنئته وولائه العثمانيين فأقره السلطان " سليم " علي ما تحبته يده من بلاد وأرزاق ، وكان هذا الولاء من هؤلاء البدو عاملاً هاماً في نجاح الجيش العثماني وتقدمه لأخضاع مصر (٥) .

(١) إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، المحرطرم ١٩٥٩ م ، ص ١٨٨ .

جلال يحيى ، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، ص ٣٦١ .

(٢) مدينة بصر تشرف علي الشام ، تقع علي ساحل البحر المتوسط .

(٣) مدينة بينها وبين القسطنطينية ٥٠ كيلومتراً تقع علي طريق الشام . يسكنها عرب بن يغبض فتحت في سنة ١٩ هـ علي يد عمر بن العاص .

(٤) أولاد أحمد بن بقرهم : عبد الدائم ، ويبرس ، والخبرامي ، وخاطر .

(٥) تزيد من التفاصيل عن تحرك السلطان سليم وجيشه من غزة إلي الحانكاك أنظر الوثائق التالية :

دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة : رقم (٢٢٣) ٢٧ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في استانبول وثيقة رقم (٢٢٣٥) ٢٨ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ . من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في استانبول وثيقة رقم (٢٢٣٨) ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في استانبول .

ترك الجيش العثمان بليس متجهاً نحو مدينة " الخانكاه " (١) ولكنه تعب في الطريق وأنهكهم الجوع والعطش ولما علم السلطان طومان باي بذلك أراد التحرك لملاقاتهم مستغلاً في ذلك تعب الجيش العثماني . لكن الأمراء والقادة المماليك منعوه من ذلك . ولو التقى معهم طومان باي لربما انتصر عليهم وأعان سبهم نحو مصر . ولكنه اضطر إلى البقاء في الريدانية نزولاً على رغبة القادة والجيش المملوكي.

وقد تعرض السلطان " سليم " وجيشه في " الخانكاه " لهجوم «عرب السومالي» الذين كانوا يغيرون على المعسكر العثماني على حين غرة إلا أن السلطان "سليم" نجح في القضاء عليهم وأسر أعداداً كبيرة منهم (٢) .

(١) الخانكاه : كلمة فارسية معناها بيت العبادة . وأول خانكاه بمصر أنشئت في زمن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب سنة ٦٥٩ هـ . أولئك عليها عدة أملاك بمصر من ريعها . ثم ضعف حال الخانكاه واستبدل بها التكايا محل إقامة الدراويش الأعاجم . (ابن زنبيل : المصدر السابق ، ص ٤٩) .

(٢) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (٢١٥٠) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من السلطان سليم إلى ابنه سليمان في إسطنبول .

معركة الريدانية

تحركت الجيوش العثمانية ، من الحانكا ، ووصلت إلى بركة الحاج في يوم الأربعاء ٢٨ ذي الحجة ٩٢٢ هـ / ٢١ يناير ١٥١٧ م . وما أن سمع أهالي القاهرة بخبر وصولهم حتى اضطرت أحوالهم . وأغلقت أبواب المدينة (١) . خوفاً من إقتحام العثمانيين لهم . أما السلطان " طومان باي " فلما بلغه خبر وصولهم نادى بالخروج لهم وضرب الحصار ومعه جماعات من العرب وطبقوا عليهم الخناق « . وكانت الجيوش العثمانية منهكة القوي لما أصابها من العطش ، فعال المالك بينهم وبين الماء . إلا أن الصدر الأعظم « سنان باشا » صوب عليهم المدافع فتفترقوا (٢) .

كان قرسان المالك الجراكسة (٣) يشنون الغارات على المعسكر العثماني ، وكل من وجده في طريقهم من العثمانيين قتلوه وقطعوا رأسه وأتوا به لطومان باي

(١) للقاهرة ثمانية أبواب : زويلة ، الفرج ، النصر ، الفرج ، المعروق ، البرقية ، سعادة ، الجسر ، القنطرة « .

(عبد الرحمن زكي : القاهرة تاريخها وأثرها ، مطبعة النور المصرية ١٢٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ص ١٥ - ١٧) .

(٢) السير وليام مور ، تاريخ دولة المماليك في مصر . ١٢٦ هـ / ١٥١٧ م . ترجمة محمود عابدين وسليم حسن . مطبعة المعارف بصر . الطبعة الأولى ١٩٢٤ م ، ص ١٧٨ .

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومير الجليلي ، الطبعة الأولى ١٩٤٨ م ، ص ٤٤٨ .

(٣) أصلهم من شمال بحر قزوين وشرق البحر الأسود ، قدموا إلى مصر بعد الزحف المغولي على بلادهم ، اشتهروا بالقوة والشجاعة ، وكانوا من أرخص أنواع الرقيق البيض . اشتراهم السلطان الناصر قلاوون ، وأسكنهم بجزائره في أبراج القلعة ، ولقا سموا بالمماليك البرجية وقد كثروا في أواخر هذه وفرداهم وسيطروا على الحكم سنة ١٢٨٢ هـ . (عاشور ، المرجع السابق ص ١٤ - ١٦) .

الذي كان يرسله ليعلق علي أحد أبواب القاهرة . وبدأ طومان باي في الإستعداد للمعركة الحاسمة فأمر بإخراج المدافع الكبيرة إلي الجبل ، ووضع آلات الحرب في ساحة المعركة واقترح الغزالي علي السلطان « طومان باي » أن يدفنها في الرمال حتي لا يكتشفها الجيش العثماني ، ففهم ذلك . وفي صبيحة يوم الخميس ٢٩ ذي الحجة / ٢٢ يناير من السنة نفسها أمر السلطان سليم بالرحيل إلي الريدانية للقاء الجيش المملوكي . وما أن انتصف ذلك اليوم حتي تلاقي الجيشان العثماني والمملوكي في الريدانية أمام قبر السلطان قايتباي قرب العباسية ^(١) كان الجيش العثماني منظمًا علي النحو التالي: السلطان سليم في منتصف الجيش والصدر الأعظم سنان باشا علي قيادة الجناح الأيمن ، وإلي جانبه أمير الأتاترل مصطفى باشا ، وخاير بك ، وأمير ذو القادر علي باشا وعلي قيادة الجناح الأيسر الوزير الثاني يونس باشا ومعه الروملي كبرجك سنان باشا وأمير بني رمضان محمود بك ^(٢) .

(١) قايتباي من أصل شركسي ، مولى السلطان جغتق . كان فارسًا شجاعًا ارتقى إلي عرش السلطنة من وظيفة أتابك . حافظ علي حياته بحاشية كبيرة جدًا من المالك المخلصين له . كان توليه السلطنة في سنة ٨٧٢ هـ . سار في البلاد سرية حسنة وقد أسعد .

الجزء ٩ من ٩

(٢) ابن العيني : تاريخ الوفاة - سيرة - غير أنه خدم في سنة ٨٧٢ هـ .

٢٩٧ - ٣٠٠ .

(٢) لنزيد من التفصيل عن تنظيم الجيش العثماني في معركة الريدانية أنظر التقرير الذي بعث به الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصلوة في استانبول .

دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٢٢٤٩) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصلوة في استانبول ووثيقة رقم (٢٢٥٠) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصلوة في استانبول ووثيقة رقم (٢٢٦٦) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصلوة في استانبول .

تقدم الجيش العثماني وكان الجيش المملوكي متحصناً في الخندق الذي حفروه في الريدانية ، وكان الجيش العثماني مدرّكاً ومتفهماً لطبيعة المدافع المملوكية الثقيلة التي يصعب دورانها للخلف بعكس المدافع العثمانية المتحركة (١) .

أرسل سليم بعض فرقه العسكرية لمواجهة الجيش المملوكي لرواغته ، بينما سير الغالبية من جيشه إلى الجهة الجنوبية من الموقع الذي تحصن فيه الماليك . وأخذت هذه الفرق تهاجم الماليك من جبل المقطم ، وكان هذا الأسلوب الحربي الذي أنتهجه السلطان سليم في الريدانية بناءً على مشورة بعض الأمراء الماليك الذين هربوا من معسكر " طرمان " ولتجاوزوا بالعسكر العثماني (٢) .

اشتبك الفريقان وتبادلا الهجمات . وحسب وطيس المعركة التي تعتبر معركة البقاء والتي سيقدر فيها مصير مصر ، ومستقبل الماليك الجراكسة .

ارتجع الجيش المملوكي من هول ما رأى من إطباق الجيش العثماني من الخلف وأيقن طرمان باي بالخذعة والمكيدة بدفن المدافع في الرمال ، واستسلم للأمر الواقع (٣) .

(١) هذه المدافع ملوّزة بالشظايا ، وهي أول مرة يستخدمها العثمانيون أثناء زحفهم على مصر وهذا النوع من المدافع حقق نتائج رائعة ومذهلة في معركة الريدانية ، وهذا النوع من المدافع يختلف بصلده إلى ٩. كنانة متوالية ، وتوجد بعض المدافع من هذا النوع في المتحف الحربي بإستانبول . (أحمد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦ م ، ص ١٤٨) .

(٢) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة (٢٢٦٣) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلى مقام الصلار في إستانبول ووثيقة رقم (٢٢٦٥) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلى مقام الصلار في إستانبول .

(٣) ابن إياس : الصدر السابق ج ٣ ص ٩٧ .

لكن أحد المدافع المملوكية أطلق قذيفة فتحت ثغرة في الجيش العثماني فهال الأمر السلطان سليم الذي سرعان ما استدعى خاير بك واستفسر عما حدث فأخبره خاير بك بأن الذي فعل ذلك إنما هو رجل أخرس لم يدفن مدفعه في الرمل ولكنه تركه مكشوقاً وهرب (١).

أما السلطان طومان باي فإنه لما رأى ما حلّ بالجيش المملوكي ، انطلق ومعه الأمير علان والأمير كريتباي كالحسام مخترقين الصفوف العثمانية ، قاصدين خيمة السلطان سليم حتى بلغوها . إلا إن سليم لم يكن بداخل خيمته . إنما كان بداخلها الصدر الأعظم سنان باشا و « محمد بن رمضان » ... واقتحم طومان باي ومن معه الخيمة وأسكوا بالصدر الأعظم سنان باشا وقتلوه ظناً منهم بأنه السلطان « سليم » وقتلوا كل من كان بداخل الخيمة . ارتج المعسكر العثماني لهول ما رأى وأثناء خروج « طومان باي » ومن معه من المعسكر العثماني مروا بالسلطان سليم ومعه خاير بك . ولكن لم يعرف كل منهم الآخر (٢) .

لما بلغ السلطان « سليم » خبر مقتل الصدر الأعظم سنان باشا والثقائدين اللذين كانا معه ، حزن على ذلك حتى قيل أنه بكى على وزيره « سنان باشا » حتى قال بعدما تم له ضم مصر " استولينا على مصر ، لكننا فقدنا سنان باشا . خسارتنا لا يمكن أن تعذلها دولة " (٣) .

(١) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٣٣١٠) وتاريخ ٣ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من السلطان سليم إلى ابنه سليمان في إستانبول .

وثيقة رقم (٣٣١٧) وتاريخ ٣ طهر الحجة سنة ٩٢٢ هـ من السلطان سليم إلى ابنه سليمان في إستانبول .

(٢) العبيدي : المرجع السابق ، ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٣٣١٥) وتاريخ ١ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلى ابنه سليمان في إستانبول .

أرسل السلطان سليم الانتكشارية للوقوف على أبواب المدينة لمنع اقتحام البيوت ، والبحث عن الماليك الجراكسة . لهذا شرعت فرق الانتكشارية تجرب ميادين القاهرة للقبض على الأمراء الماليك من المقابر والأزقة والخرائب . وكل من أسكروا به ، أرسلوه إلى السلطان في معسكره ليضرب عنقه . وقبض بعض مشايخ العربان على الأتراك " سودون الدوي داري " . وأتوا به للسلطان " سليم " الذي ربحه بالكلام لموقفه المعادي منه .

ويذكر ابن إياس في روايته أنه لما أوتي " بسودون الدوي داري " إلى السلطان سليم كان مجروحاً أو يعاني من سكرات الموت ، فلم يشفق عليه ، وأركه علي ظهر الحمار وألبسه ملابس رثة نكابة به ، كما يذكر في روايته تلك أن الانتكشارية وهي تجرب أحياء القاهرة وضواحيها للبحث عن الماليك الجراكسة ، نهبوا البيوت ، وهدموا المقابر وقتلوا من بها سواء من الماليك المختبئين أو السكان القاطنين بها من غير الماليك ، وذكر ابن إياس أنه قتل في يوم واحد ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين من سكان ضواحي القاهرة . وأنه قتل من الماليك الشراكسة ما يزيد عن أربعمائة شخص ، وأخذوهم إلى الريلانية وفصلوا رؤوسهم عن أجسادهم وجمعوا تلك الرؤوس وعلقوها علي حبال نصبت علي أعسدة ، وأمتلأت شوارع وأزقة القاهرة بالجثث المشوهة التي بدون رؤوس ^(١) .

وأرى من وجهة نظري أن إياس قد بالغ في سرده للأحداث ، ولا يستغرب عليه ذلك فهو سليل أسرة شركسية ، وكثيراً ما كان يطلق العنان لشهوته وعواطفه ، حتي أننا نراه في سرده للأحداث يحمل علي العثمانيين ويلقبهم بالسفاكين تارة وبالظلمة تارة أخرى ، في عبارات شديدة ، وأحياناً مؤثرة ، ومن الغريب أنه كان متردداً مضطرباً في عواطفه نحو العثمانيين في بعض الأحيان ، فبينما يحمل علي

(١) ابن إياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٩ .

سليم ويعدد جرائمه . نراه في موقف آخر يترحم عليه حين يذكر وفاته ويلقبه بهنسب
(الملك المظفر) (١) ولهذا فمن الصعب التعرف علي حقيقة المؤثرات التي دفعته
لخالفه حقيقة عواطفه . وربما أنه دون تاريخه في عهد اضطراب وفتنة . فكان
متردداً بين الذم والمدح .

وفي يوم الأحد ٢ محرم ٩٢٣ هـ قدم الأمير " محمد بن قانصوه الغوري "
إلى السلطان سليم في معسكرة بالريدانية ، وعرض عليه الطاعة ، فقبلها سليم
وأمنه علي حياته وماله ومنحه مدرسة أبيه التي أنشأها في الشراشين للسكن
فيها ، وأسكن الدفتردار أحد وزراء السلطان سليم في بيت الأمير محمد قانصوه
الغوري (٢) .

(١) ابن أبياس : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٣٦ .

(٢) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٣٣٣٧) وتاريخ ٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الوزير
الثاني يونس باشا (لم يذكر اسم المرسل إليه) .
الصير وليام مور : المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

معارك القاهرة

توجه السلطان " سليم " بعد إنتصاره قاصداً القاهرة ودخلها في موكب حافل من باب النصر ، ^(١) وقد ارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان العثماني ، وضاعت شوارع القاهرة بالجيش العثماني ومرَّ الموكب بباب زويلة قاصداً بولاق (الجزيرة الوسطانية) وعسكر بها ^(٢) .

وفي يوم الثلاثاء ٤ محرم ٩٢٣ هـ / ٢٧ يناير ١٥١٧ م قدم اثنان من الجنود المماليك للقاهرة حارين من الجيش المملوكي الذي تنقل مع طومان باي لمحاولة إستعادة الحكم من العثمانيين . وأطلعوا السلطان " سليم " بعزم " طومان باي " ومن معه بالهجوم المفاجيء علي القاهرة لمباغطة العثمانيين ^(٣) وقد تم ذلك ودخل معه نحو سبعة آلاف من أتباعه من المماليك إلى القاهرة في ليلة الأربعاء ٥ محرم ٩٢٣ هـ ونزل في الشيخوخة ^(٤) وتفرق جيش " طومان باي " في المدينة

(١) موضعه الأول بالرحبة المراجعة أمام جامع الحاكم قرب المكان الذي شغله الباب الممالي (عبد الرحمن زكي الرجيع السابق ، ص ١٥) .

(٢) ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٣) المزيد من التفصيل عن المعلومات التي أدلي بها الجنود المماليك القارين من الجيش المملوكي للسلطان " سليم " أنظر :

دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٣٣٤٠) وتاريخ ٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الوزير الأعظم "يونس باشا " إلى مقام الصدارة في إستانبول وثيقة رقم (٢٢٤٥) وتاريخ ٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الوزير الأعظم " يونس باشا " إلى مقام الصدارة في إستانبول .

(٤) تطلق علي المنطقة المجرودة بشارع الصليبي حول مسجد شيخون وكانت من جطة قطائع ابن طولون وكانت هذه المناطق مساكن إشتراها شيخون " سيف الدين الناصري " (ابن زنبيل : المصدر السابق ، الحاشية ، ص ٢٥) .

وسدوا الطرق والمداخل الرئيسية ومحصنوا بالبيوت . وقتلوا في تلك الليلة الكثير من الجنود العثمانيين (١) .

وفي هذا دلالة كبيرة على أن قوة المماليك لا تزال باقية . وأنه كان في وسعهم الإستمرار في المقاومة ومعارلة إسترجاع سلطتهم على البلاد.

وما أن بلغ الخبر للسلطان " سليم الأول " حتى أمر بإرسال فرقة من الإنكشارية بقيادة وزيره الأعظم " يونس باشا " ومعه " مير ميران " و " مصطفى باشا " ، و " إياس أغا " ، و " أمير العلم " (٢) لقتال طومان باي .

التقى الطرفان واشتد القتال بينهم من وراء السدود ، واستمر من طلوع الفجر إلى ما بعد الغروب من وراء السدود ، المنصوبة في الشوارع والأوراق ، وفي صباح يوم الخميس ٦ محرم هجعت القوات العثمانية على الناصرية وقبضوا على العديد من المماليك ، وفر " طومان باي " من الناصرية إلى الصليبية ، ومنها إلى قناطر السباع في نفر قليل من جنده ، وأمر بحفر عدة خنادق في الصليبية وقناطر السباع والرميلة وجامع بن طولون ، وقسم جيشه إلى أربع فرق ، الأولى ، وجهها إلى قناطر السباع ، والثانية إلى الرملة ، والثالثة إلى جامع بن سلطان ، والأخيرة إلى باب زويلة ، وظهر " طومان باي " في القاهرة وخطب بإسسه في المنابر في يوم الجمعة ، وكان في الجمعة السابقة قد خطب بإسم السلطان " سليم " وقد استمر " طومان باي " في معاركه مع العثمانيين ، وكان يقتل كل يوم منهم أعدادا كبيرة ،

(١) يذكر ابن إياس في تاريخه أن " طومان باي " هاجم المعسكر العثماني بهولاق ، وقتل الكثير من العثمانيين وأحرق العديد من خيامهم ، وأحدث النزاع والإضطراب في المعسكر وبهذه الرواية يخالف ابن إياس بنية المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث سواء أتراك أو عرب والذين شاهدوها ونحن لا نوافق على ما ذكر ، لأنه اعتمد في رواياته على أصوله بدليل قوله " أشيع " (ابن إياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٢) .

(٢) هو الذي يتولى أمر الأعلام والناجق والرايات السلطانية ويشترط فيه الدراية بنوع الأعلام اللازمة لكل موكب من المراكب السلطانية .

(سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٤١٥) .

لا شك أنَّ هذه المعارك أثرت علي معنويات العثمانيين ، حيث أنهم لم يعتادوا علي حرب الحارات والشوارع مما جعلهم يخشون علي سلطتهم ، بل حتي علي سلامة أرواح قواتهم الموجودة بالقاهرة . ويظهر هذا التأثير من قوة حركة رد الفعل التي قام بها العثمانيون ، والتي أخذت شكلاً واضحاً للإنتقام من القاهرة وضواحيها . لذلك صبوا جام غضبهم في الصليبية ، وأحرقوا سقف الديوان الكبير والقبعة التي كانت عليه بسبب إختفاء " طومان باي " في هذا الديوان وقت المعارك في القاهرة ، كما أحرقوا البيوت المحيطة به وألقي العثمانيون القبض علي كثير من الأهالي وعملوا السيف فيهم ، حتي أصبحت جثثهم منتشرة علي الطرقات والأزقة والأسواق . وأخذ العثمانيون يجهزون الحارات والأزقة والبيوت بحثاً عن الماليك ، وحتى في المساجد والجوامع ، وهاجموا الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون ، وغيرها من الجوامع والمدارس ، وكانوا يقتلون من يجير الماليك ، وقيل أنهم قبضوا علي ثمانية جراكسة ، وأثروا بهم إلي السلطان سليم في الرميطة ، فأمر بضرب أعناقهم ، وأمر بإحراق البيوت التي كانوا يتحصنون فيها ^(١) .

وليس أدل علي ما فعله العثمانيون بعد هزتهم لطومان باي من الرسالة التي أرسلها السلطان سليم إلي أمير دمشق وقاضي القضاة بها : " وفي هذه الثلاث أيام يستمر القتال من الصباح حتي العشاء ، ويعون الله تعالي قتلنا جميع الجراكسة ، ومن انضم إليهم من العريان ، وجعلنا دمانهم مسفوحة وأبدانهم مطروحة ، ونهب عسكرنا قماشهم وأثاثهم وديادهم وأموالهم ... ثم سارت أبدانهم للهوام " ^(٢) .

(١) محمد عبد المنعم السيد الرائد ، الغزو العثماني لمصر ونتائجه علي الوطن العربي ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، ص ١٨٩ و ١٩٠ .

(٢) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (٥٤٤) وتاريخ ٩ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان "سليم" إلي أمير دمشق وقاضي القضاة .

وفي يوم الثلاثاء ١١ محرم / ٣ فبراير أسند السلطان " سليم " منصب الصدر الأعظم إلي " يرنس باشا " بعد مقتل سنان باشا الصدر الأعظم سابقاً في معركة الريدانية ، وعيّن فرقة من جيشه لتتولي الإشراف علي القاهرة . (١) أما السلطان " سليم " فقد توجه في مركب حافل الي القلعة لأول مرة ، ثم عاد إلي معسكره في بولاق واستبشر بما تم له من نصر علي المماليك ، فأرسل رسالة إلي أمير الشام وقاضي القضاة بها . ضمنها ما جرى له من بداية زحفه علي مصر وحدثت معركة الريدانية ، وانتقاله إلي معسكره في بولاق ودخوله القاهرة ، ومحاربتة المماليك وهروب طومان باي (٢) .

بعد أن انتهت معارك القاهرة اختفى " طومان باي " ، ولم يكن لدي "السلطان سليم " معلومات مؤكدة عن مصيره . وبعد فترة من الزمان علم بعض الأسري المماليك أن السلطان طومان باي لا يزال علي قيد الحياة - وأثناء تلك الأحداث قبض علي يشبك الداودري ، فمنحه السلطان " سليم " الأمان وذلك نظراً لما يمكن أن يدلي به من معلومات هامة عن نوابا " طومان باي " وعن حالته ومجهيزاته العسكرية بحكم مركزه في الدولة المملوكية .

قام أحد العثمانيين باستجواب " يشبك " ، وكتب تقريراً بأقواله وآرائه . وتضمن هذا التقرير معلومات هامة منها هروب " طومان باي " إلي البر الغربي من النيل عند تعرضه لهجوم الجيش العثماني ، وحدث أحد الطريقين اللذين يمكن أن

(١) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (٥٤٤١) وتاريخ ١١ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " إلي إبنه وولي عهده " سليمان " ، وثيقة رقم (٥٤٤٣) وتاريخ ١١ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " (لم يذكر اسم المرسل إليه) .

(٢) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (٥٤٤٨) وتاريخ ١٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " إلي أمير دمشق ولقاضي القضاة . وثيقة رقم (٥٤٥٠) وتاريخ ١٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " إلي قاضي لضاة دمشق .

يسلكهما طومان باي أثناء هروبه ، وهما شاطي . النيل ، أو الطريق المؤدي إلى مناطق الأعراب كطريق ابن عمرو ابن واصل الأحطب (١) .

أرسل السلطان " سليم " وهو في معسكره بالجزيرة الوسطانية يستدعي خاير بك لإمثارته في أمر الماليك المتبقين في القاهرة بعد هروب طومان باي . فأشار عليه خاير بك بإعطائهم الأمان وإعطائهم مهلة ثلاثة أيام . وقد أمتحن السلطان سليم هذا الرأي ، ورفع فوق خيمته راية حمراء بإقتفاء أثرهم ، وأصدر إعلاناً أمر فيه الأهالي أو نوابه بالأماكن التي يختبئون فيها ، وأعطاهم مهلة ثلاثة أيام ، وهددهم بأن من وجد عنده مملوكي فإنه معرض للقتل (٢) .

وتهاافت الأهالي إلى خاير بك يخبرونه عن الأماكن التي يختبئ بها الماليك . فسارع بإرسال الفرق لالتقاطهم عليهم . وإرسالهم إلى معسكر السلطان سليم لقتلهم .

وبعد أيام قلائل وسع غزو السلطان " سليم " الأمراء الماليك ، وكتب عهداً وأماناً للماليك الجراكسة المختبئين . وأمرهم بالظهور والإلتجاء إلى مدرسة السلطان الغوري ، وظهر من أمراء الماليك كل من أركماس . أنسباي ، والأمير قمر الحسني ، وقانصوره أبو سنة ، ومصر باي ، وشيك الذي كان مختبئاً في الجامع الأزهر . . .

اجتمع هؤلاء الأمراء في مدرسة السلطان الغوري وكلّوا عددهم يتجاوز الخمسين وأحاطت بهم فرقة من الجيش الإنكشاري العثماني . ومضوا بهم إلى

(١) أنظر نص التقرير والمعلومات التي أدلى بها " شبك " في الوثيقتين التاليتين :

دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (٦٥٥٣) وتاريخ ١٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ ، موقعة من أحد الكتاب (لم يذكر إسمه) إلى السلطان " سليم " ، وثيقة رقم (٦٥٥٧) وتاريخ ١٦ محرم ٩٢٣ هـ موقعة من أحد المحققين (لم يذكر إسمه) إلى السلطان " سليم " .

(٢) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٦٠) وتاريخ ١٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " (القاهرة) إلى ابنه " سليمان " (إستانبول) . وثيقة رقم (٦٥٦٣) وتاريخ ١٦ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " إلى أمير دمشق وقاضي القضاة

معسكر السلطان " سليم " وبعد أن ذكرهم الأخير بما قاموا به من أعمال ظالمة أثقلت كاهل الشعب المصري . أمر بإرسالهم إلى القلعة للاحتفاظ بهم (١) .

وكان من جملة المختبئين الأمير كرتباي الوالي المصاب في فخذه ، وكان مختبئاً عند صديقه يحيى بن بكر الذي ما لبث أن سمع النداء حتى هب للذهاب إلى معسكر السلطان " سليم " لأخذ الأمان لكرتباي . واستبشر السلطان لهذا الطلب وأرسل مع المتدوب مندبل الأمان والمصحف وكتب له كتاباً ، وأمره بالقدوم إلى معسكره .

قدم يحيى بن بكر والأمير المملوكي كرتباي إلى معسكر السلطان ودارت مناقشة حادة بينهما ، أصدر السلطان بعدها أمره بقتل الأمير كرتباي جزاءً لما تلفظ به من ألفاظ أغضبت السلطان سليم (٢) .

أما طومان باي فبعد هزيمته في معارك القاهرة فقد قر من موقعه في الصليبية ، وتوجه إلى الوجه القبلي في الصعيد ، واستقر في البهنسا ، ومن هناك أخذ في منع وصول الغلال إلى القاهرة ، فوقع فيها القلاء ، وفي الصعيد التف حوله الكثير من الأتباع والمؤيدين حتى قويت شوكرته . ولكنه أدرك إستحالة الوقوف أمام الجيوش العثمانية الضخمة (٣) .

وفي يوم الاثنين ١٧ محرم سنة ٩٢٣ هـ / ٩ يناير ١٥١٧ م أرسل " طومان باي " إلى السلطان " سليم " رسالة يفارضه في الصلح وهذا نص الرسالة :

(١) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٦٧) وتاريخ ١٧ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الصدر الأعظم " يونس باشا " إلى مقام الصنارة لمي (إستانبول) .

(٢) ابن زنبيل ، الصدر السابق ، ص ٥٦ ، ٦٢ .

العبيدي ، الصدر السابق ، ص ٧٢ ، ٧٧ .

(٣) إبراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

" إن كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة بإسمك وأكون نائباً عنك بصر وأحمل إليك خراج مصر حسبما ما يقع عليه الإتفاق بيننا من المال الذي أحمله إليك في كل سنة فأرحل عن مصر أنت وعسكرك إلي الصالحية وصن دماء المسلمين بيننا ، ولا تدخل في خطيئة أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ وإن كنت ما ترضي بذلك ، أخرج ولاقتي في بر الجيزة ويعطي الله النصر لمن يشاء ... ولا تحسب أنني أرسلت إليك أسألك في أمر الصلح عن عجز ، فإن معي ثلاثين أميراً ما بين مقدمي الوف وأربعينات وعشراوات ، ومعهم الممالك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفاً ، وما أنا بمعجز عن قتالك ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين" (١) .

يلكر ابن إياس في تاريخه أن السلطان " طومان باي " أرسل تلك الرسالة في أوائل شهر سفر (٢) والأصح هو ما ذكرناه سابقاً أنها في ١٧ محرم . بدليل ما كتبه السلطان سليم بعدما أستتب له الأمر في القاهرة إلي ابنه الأمير " سليمان القانوني " في رسالة الفتح في أواخر شهر محرم ، والتي ذكر فيها : " خرج طومان باي في ذي النسا ثم اختفي . ولما استقصينا أخباره وجدناه قد دخل ولاية الصعيد ، وأرسل إلينا رسالة يتضرع فيها ... إلي أن قال : " نتحققنا في هذه الأثناء من مصطفى باشا أمير الرملة السابق ومن الجراكسة ، أن جان بردي الغزالي جاء في ذلك الوقت ، وأدي فروض الطاعة وأظهر العبودية ، وانحسوع بإخلاص... (٣) " .

(١) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٧٠) وتاريخ ٢٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الصر الأعظم " يونس باشا " إلي مقام الصدارة في (إستانبول) وثيقة رقم (٦٥٧٣) وتاريخ ٢٣ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الصر الأعظم " يونس باشا " إلي (إستانبول) . (لم يذكر إسم المرسل إليه) .

(٢) إين إياس ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

(٣) أحمد متولي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

ومن المعلوم أن جان بردي الغزالي قدم إلى السلطان " سليم " طالباً الأمان
في يوم الثلاثاء ١٨ محرم ، وهذا ما أثبتته ابن إياس ^(١) وبذلك يكون السلطان
" طومان باي " قد أرسل في مفادضة الصلح مع " سليم " في اليوم السابق . وربما
اشتبه الأمر علي ابن إياس ولم يتحقق من مصدر تلك الرواية .

وأثناء قدوم جان بردي الغزالي إلى معسكر السلطان " سليم " بهولاق لطلب
الأمان ، كان معه ما يريو علي الشافئة من الأمراء والخدم ، ليقدموا فروض الولاء
والطاعة للسلطان " سليم " ، فأكرمه سليم وأمنه علي نفسه وماله ، أما الوفد الذي
قدم معه طلب الأمان فأودعوا السجن . وكان سبب قدوم الغزالي علي سليم أنه
أدرك بعدما طلب " طومان باي " الصلح مع " سليم " أنه لم يعد بقوي علي مقاومة
العثمانيين مرة أخرى . وربما لجأ إلي ذلك في هذا الوقت بالذات وقبل أن تستقر
الأمر للعثمانيين تماماً خشية أن يفتضح أمره مما يولعه تحت طائلة العقاب من قبل
المماليك .

وبعد مدوه العاصمة ، وعلوها من المقاومة بعد هروب السلطان المملوكي
" طومان باي " إلي الصعيد إنجحه السلطان " سليم " في صبيحة يوم الأحد ٢٣ محرم
سنة ٩٢٣ هـ / ١٥ فبراير ١٥١٢ م من معسكره الذي أقامه في بولا ق قاصداً
القاهرة ودخلها في إحتفال رسمي كبير . وأقام بها عدة أيام وصلى بها الجمعة في
٢٨ محرم / ٢ فبراير في جامع المؤيد .

ودعا له خطيب الجمعة بلقب خادم الحرمين الشريفين فأكرمه السلطان سليم
وخلع عليه . وبذلك دخلت القاهرة في الحكم العثماني رسمياً ، وأصبحت منذ ذلك
اليوم أكبر دوة تزئّن التاج العثماني بعد الحرمين الشريفين ^(٢) .

(١) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٦ .

(٢) جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ٦٥ .

أحمد متوكلي ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ و ١٩٧ .

وبعد أن استتبت الأمور للسلطان سليم في القاهرة أرسل لابنه الأمير "سليمان القانوني" الذي عينه نائباً عنه في إدارة دفعة الحكم في الدولة رسالة الفتوح في أواخر شهر محرم سنة ٩٢٣ هـ ضمنها أخباره وما جرى له في المعارك التي دارت بينه وبين السلطان المملوكي قانصوه الغوري في موقعه مرج دابق ، وفي موقعة الريمانية مع السلطان "طومان باي" وفي داخل القاهرة ، وذكر له كيفية هروب طومان باي إلى الصعيد ، وبشره بتمام الفتوح في نهاية الرسالة (١) .

(١) رسالة الفتوح عبارة عن مجموعة تقارير موجزة لحصن فيها السلطان "سليم" أخباره منذ أن أُنحى إلى بلاد الشام وحتى تاريخ الرسالة . وكان "سليم" علي اتصال دائم بابنه ودلي عهده "سليمان القانوني" ، يتضح ذلك من الرسائل الكثيرة التي كان يرفعها إلى ابنه "سليمان" في (إستانبول) وقد أدرجت بعض هذه الرسائل في الصفحات السابقة من هذا البحث .

معارك الجيزة .

في يوم الجمعة ٢٨ محرم وردت الأخبار إلى القاهرة بأن " طومان باي " خرج إلى بر الجيزة . ومنها توجه إلى عرب الهزاره ^(١) طالباً منهم الانضمام إليه . وعرض عليهم رفع الحراج عنهم ثلاث سنوات . ولكنهم رفضوا مساندته خوفاً من قوة الجيش العثماني . فانشئ راجعاً وفي الطريق انضم إليه من العربان سبعة آلاف (٧٠٠٠) فارس .

وما أن وصل قرب اطفح ^(٢) حتى قدم عليه من ثغر الإسكندرية خمسة آلاف (٥٠٠٠) فارس من الرماة بالبنادق وخمسين (٥٠) مدفعاً .

اجتمع " طومان باي " بقادته ومعهم غانم السيوفي حاكم الفيوم واتفقوا على مهاجمة المعسكر العثماني في الجزيرة الوسطانية .

غير أن غانم السيوفي تحركت في نفسه الخيانة ، ورأى أن ينضم إلى معسكر السلطان سليم لأنه كان يدرك أن دور المماليك على وشك الزوال . وما أن حلّ الظلام حتى خرج من المعسكر المملوكي ومعه الأمير أبو حمزة ومائتا مملوك . ودخل في طاعة السلطان سليم وكشف له خطة الهجوم المملوكي على معسكره . وعلم " طومان باي " بخيانة غانم السيوفي ^(٣) .

أرسل السلطان " سليم " جيشاً قوامه ستة وعشرون ألفاً (٢٦٠٠٠) مقاتل بقيادة غانم السيوفي عن طريق النيل ، وكان يهدف " سليم " من وراء ذلك مقاومة " طومان باي " بمعارته بمماليك من جنسه ، ولا سيما الأمراء منهم الذين خانوا دولتهم وانحازوا له منذ أيام حكم السلطان الغوري ^(٤) .

(١) قرية من أعمال مركز الفيوم .

(٢) بلد من أعمال محافظة الجيزة .

(٣) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٨٠) وتاريخ ٩ صفر سنة ٩٣٢ هـ من لغام السبني إلى السلطان " سليم " .

(٤) عبد المتعم ماجد : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

وتقابل الجيشان ، وخرج غانم السيفي للمبارزة . وبرز من الماليك الأمير دولتباي أمير الجزيرة ، وأخذ كل منهما يستعرض قوته . والتحم الإثنان فتصكن دولتباي من إسقاط غانم السيفي عن جواده ، ونزل لقطع رأسه فهبت عليه القوات العثمانية والتحم الجيشان وتقاتلا حتي الليل . واجتمع " طومان باي " بقاتله فتشاوروا في الإتقسام إلى فرقتين . فرقة بقيادة الأمير شاريك الأعور ، وتبقى خارج المعركة ، والفرقة الأخرى بقيادة طومان باي وتبقى في ميدان المعركة . حتي إذا اشتدت المعركة وحمل الوطيس . هاجمت الفرقة التي خارج المعركة الجيش العثماني من الخلف ، وبذلك يتمكنون من الإطباق عليهم .

وفي صباح اليوم الثاني أطبقت الفرقتان الملوكتان البالغ عدده كل منهما نحو ثمانية آلاف (٨٠٠٠) جندي علي العثمانيين . وما أن أنتصف النهار حتي هزم الجيش العثماني ، وولي قاراً نحو الشاطيء قاصدين مراكبهم ، فلم يجدوها ، وتعقبهم الماليك ، فأبادوا الكثير منهم ، ولجأ غانم السيفي وأبو حمزة وأيأس أغا من القتل ، وغنم الماليك في هذه المعركة غنائم كبيرة من الأسلحة والمراكب . وقتل منهم نحو ألفين وثلاثمائة (٢٣٠٠) غاليبيتهم من الرماة (١) .

ولما علم السلطان سليم بهزيمة جيشه أشد غضباً . وأستدعي مستشاره "خاير بك " وعاتبه علي الإغرار به وبجيشه بدخول مصر وتسهيله له مهمة ضمها دون عناء ومشقة . وذكر له أنه ملّ الحرب مع الماليك وعلي رأسهم سلطانهم "طومان باي " ، حتي أنه قال : " ولو أن طومان باي أعطاني الخطة والسكة بإسمي لرجعت عنهم إلى الشام ، وما كنت دست هذه الأرض برجلي ، ولكنت مائلاً علي دماء قلوبهم ولا علي مالهم وأولادهم " (٢) .

(١) عمر عبد العزيز عمر . دراسات في تاريخ العرب الحديث (١) الشرق العربي من الفتح العثماني حتي نهاية القرن الثاني عشر ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ص ٧٩ .

(٢) ابن زنبيل ، المصبر نفسه ، ص ٦٩ و ٧٠ .

رجع غانم الميني ووفاه إلى معسكر السلطان سليم في بلاق ، واستدعى السلطان سليم وزراء وأمراء ومستشاريه ، وعقد إجتماعاً للتشاور في أمر السلطان طومان باي وأتباعه . ورأي السلطان " سليم " ألا يرفض الدخول في الصلح الذي عرضه طومان باي عليه ، بحسب الشروط التي ذكرها طومان باي فاستحسن الحاضرون رأيه . وكتب صورة معاهدة إليه في يوم الخميس ١٢ صفر / ٥ مارس . ووقع عليها . وشكل وفداً من الخليفة محمد المتوكل علي الله وقضاة المذاهب الأربعة وكبير القضاة أبر بكر بن عبد البر بن محمد ، وأخيه قاضي القضاة محمد بن عبد البر بن محمد الشهير بحسام الدين ، ومصطفى جلبي دفتردار الأناضول السابق ، وبعض جنود السباهية (١) .

أمرهم السلطان " سليم " بالسير إلى البهنسا في الصعيد لحمل هذا العهد وتسليمه " لطومان باي " لكن الخليفة كره القيام بهذا الأمر ، وأرسل نائبه برد بك بدلاً عنه .

بذكر ابن زنبيل أن الوفد وصل إلى معسكر السلطان القريب من قتيبة بن حصيب (٢) والتقى بالسلطان " طومان باي " وسلموه العهد ، فأبدي " طومان باي " رغبته في القبول ، ولكن أمراء لم يشقوا بعودة السلطان " سليم الأول " ولهذا خالفوا رأي قائدهم " طومان باي " وقتلوا غالبية الوفد ، ومن بينهم القاضيين أبو بكر وأخيه محمود ، والمنسوب مصطفى جلبي دفتردار الأناضول سابقاً ، وهرب الباقيون (٣) .

(١) يذكر ابن زنبيل أن عدد هؤلاء الجنود يربو على الخمسمائة جندي ، وسبب إرسال السلطان " سليم " ذلك العهد الضخم مع الوفد هو خوفه من هجمات العربان علي الوفد في أثناء الطريق .

(٢) قرية مشهورة شمال أسوط ، وهي منسوبة إلى الحصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر في عهد هارون الرشيد .

(٣) ابن زنبيل ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .

ويذكر ابن أبياس وابن الحبلي أن الوفد العثماني تعرض للهجوم من فرقة الجراكسة قبل وصولهم إلى البهنسا ، بذلك يخالفون ما ذكره ابن زنبيل في روايته . ونحن نعتقد رواية ابن زنبيل لأنه أقرب للحديث من مخالفه . (ابن أبياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٠) .

(ابن الحبلي ، دار المذهب في تاريخ أعين حلب ، الجزء الأول من القسم الأول ، ص ٣٨٦ و ٣٨٧)

وفي يوم الخميس ١٩ صفر بلغ الخبر سليماً بما آكل إليه مصير الوفد الذي أوقده إلى السلطان طومان باي فغضب غضباً شديداً ، وأيقن أن خصمه لا يريد إلا الحرب ، ولذلك أخذ يعد العدة لحربه ، ونقل معسكره من الجزيرة الوسطانية إلى بركة الجيش وفي صباح يوم السبت ٢١ صفر نزل السلطان سليم من القلعة ومعه العديد من جيشه متوجهاً إلى بركة الجيش (١) .

أما السلطان طومان باي فقد أمر قواته بالمسير حتى أشرف على بركة الجيش من الجهة الغربية المقابلة لرأي معسكر العثمانيين . وأقام بجيشه في بر الجزيرة ، وأخلوا يتباحثون الأمر فيما يفعلونه بالتصدي للجيش العثماني . وبينما هم على هذا الحال ، إذ أقبلت فرقة علي رأسها الأمير رزمك الناشف ، واعتذر " لظومان باي " عن عدم مراقبته بعد الريدانية ، وبين له سبب ذلك وهو إصابته بجروح ، وأطلعهم علي خيانة الغزالي الذي راسل الخائن خاير بك مستشار السلطان سليم بشأن المدافع ، وأنه أشار - الغزالي - علي الجنود بردهم المدافع تحت الرمال مما أعاق عملياته الهجومية . فأخبره السلطان " طومان باي " بأنه علي علم بخيائته منذ إرساله علي رأس جيش إلى غزه للدفاع عنها ضد العثمانيين ، ولكنه لمن يقاتلهم وتظاهر بالقتال والهزيمة ودجع للريدانية (٢) .

أمر السلطان سليم وزيره يونس باشا بإحضار الأمراء المالكين المحتجزين في القلعة ، ولما مثلوا بين يديه ، استفهم منهم عن سبب تركهم " لظومان باي " والقُدوم

(١) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٨٢) وتاريخ ٢١ صفر سنة ٩٢٣ هـ من السلطان "سليم" (القاهرة) إلى ابنه " سليمان " (إستانبول) ووثيقة رقم (٦٥٨٤) وتاريخ ٢٣ صفر سنة ٩٢٣ هـ من الصدر الأعظم " يونس باشا " إلى مقام الصدرة في (إستنبول).

(٢) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٨٨) وتاريخ ٢٢ صفر سنة ٩٢٣ هـ من عاطف باشا إلى السلطان "سليم" (القاهرة) ووثيقة رقم (٦٥٩١) وتاريخ ٢٣ صفر سنة ٩٢٣ هـ . (لم يذكر اسم المرسل إلى السلطان "سليم" القاهرة) .

إليه فأجابه بأنهم يريدون الدخول في طاعته . ثم بعد ذلك أمر بضرب أعناقهم جميعاً وكانوا نحو الستين أميراً جركسياً ، نكابة بما فعله طومان باي من قتل بعض أعضائه الوفد العثماني الذي أوفده للمصالحة (١١) .

كان من بين هؤلاء الأمراء من هو مقدم مائه (١٢) أو أربعين أو عشرة من أمراء الجيش المملوكي الجركسي ، كما من بينهم من تقل وظائف كبير في الدولة المملوكية مثل الأمير تقطباي نائب القلعة ، وطقطباي حاجب الحجاب (١٣) ، والركماس أمير السلاح ثاني بك الخازنار (١٤) وتتمز الزوكاش ، (١٥) ويوسف الأشرفي الزوكاش الثاني ، وانسباي أمير آخرد ... (١٦) وقانصور أحد الأمراء المقدمين ... (١٧) .

(١١) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٦٢٠) وتاريخ ٢٥ صفر سنة ٩٢٢ هـ من السلطان " سليم " (القاهرة) إلى ابنه " سليمان " (إستانبول) .

(١٢) أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف ويكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ، وهو في نفس الوقت مقدم على ألف جندي في وقت الحرب . (سعيد عاشور ، المراجع السابق ، ص ٤١٥) .

(١٣) تسمى وظيفته " الحجريه الكبرى " وهو يقوم بالنظر في مخاصات الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك .

(١٤) المشرف على خزائن السلطان من نقد وأمتعة .

(١٥) سعيد عاشور ، المراجع السابق ، ص ٤٣٢ .

(١٦) العامل في صنع السلاح وإصلاحه وتجديده .

(١٧) وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على إسطول السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات .

(١٨) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٦٣١) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ من الصدر الأعظم " يونس باشا " إلى مقام الصنارة في (إستانبول) وثيقة رقم (٦٦٣٩) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ (لم يذكر اسم المرسل) إلى ولي العهد " سليمان " (إستانبول) وثيقة رقم (٦٦٤٧) وتاريخ ٢٩ صفر سنة ٩٣٢ هـ من الصدر الأعظم " يونس باشا " إلى أمير دمشق وقاضي القضاة

معارك النيل

في يوم الأحد ١٩ صفر جمع السلطان سليم جيشه عند بركة الجبش استعداداً لعبور النيل الي بر الجيزة ، بعد استكمال استعداداته . وبدأت الدفعة الأولى في العبور ، وكان تعدادها نحو الفين أو أكثر . وكان السلطان طومان يراقب الموقف عن كثب .

وما ان أتمت الدفعة الأولى عبورها ورست علي البر حتي هاجمها طومان باي بقواته ، وأوقع بهم القتل . ولم ترسو الفرقة الثانية علي الشاطئ . الغربي حتي تمكن طومان باي من اثناء غالبية الدفعة الأولى .

اضطرب الجنود العثمانيون وتشتت امورهم فاستغل السلطان طومان باي الفرصة في الهجوم عليهم . وقتل بعضهم وفر الباقون في المراكب .

لما رأي السلطان سليم ما حصل لجنوده اغتم لذلك ، وندم علي اقدامه علي ذلك العمل . حتي انه قال : (... لو اشار علي أحد بذلك . يعني العبور . لقتلته اشد قتله ، ولكن يهون الله تعالي علينا ...) (١) ولذلك أوقف السلطان سليم عملية العبور إلي حين تسمح الفرصة بذلك وأمر باطلاق نيران المدافع علي المحالينك في البر الغربي .

نشبت معركة بين الطرفين علي ضفتي النيل . وأخذ كل فريق يقذف الآخر بالسهم والرصاص . وأثناء المعركة تمكن بعض الجراكسه من الهروب من المعسكر الملوكي ، والتجأوا إلي معسكر العثمانيين . وكان من بين الفارين خادم الأمير علان . فقام العثمانيون باستجوابه ، للوقوف علي آخر تطورات الموقف عند المحالينك الجراكسه ، لأخذ الحيلة والحذر منهم .

(١) دلترا الهمة رقم (١٠) وثيقة رقم (٦٧٢٠) وتاريخ ٢٥ صفر سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلي ابنه سليمان .

وقد أدلى هذا الخادم بمعلومات هامة .. حيث شرح وضع طومان باي وأعوائه ، وذكر هدف طومان باي من جمع العرب ، وهو عدم السماح للمراكب العثمانية بالمرور في النيل ، وضع أي عبور لهم إلى الضفة الأخرى . وذكر لهم أن عدد العرب المتعاونين مع الماليك نحو الألفين رجل (١) .

وأودت السلطان سليم فكرة إغلاق الطرق في وجه الماليك حتى لا يتمكنوا من الهروب خارج حدود مصر . ولهذا أمر بكتابة الرسائل إلى أمرائه في الأطراف يأمرهم فيها بإغلاق الطرق أمام الجنود الماليك الفارين ، ومحاولة القبض عليهم (٢) .

بينما هم على تلك الحالة إذ لاح للماليك من الخلف من بعيد جيش قادم نحوهم ، وكان هذا الجيش هم عرب غزاليه يتقدمهم حماد بن خبير وأخوه سلام . وما إن اقتربوا من المعسكر السلوكي حتى يادروا طومان باي الشتم وهندوه بمعاربته إذا لم يكف عن قتال العثمانيين . وذكره بما قام به سلاطين الماليك السابقين له من ظلم واستبداد وقتل ذريع للرعية ، وقد الهجاهم الله يزعج السلطان سليم على دولتهم حتى أفضى غالبية أمرائهم (٣) . اضطر طومان باي وأتباعه إلى التفتت حزيناً بئساً إلى أهرامات الجيزة ، خشية الوقوع في كمين يطبق عليهم من الجنايين . وأثناء تفتت الماليك إلى الخلف عبرت القوات العثمانية في أمان في اليوم الأول من ربيع الأول .

(١) دفتر المهمة رقم (١٠٠) وثيقة رقم (٦٧٣٧) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ تقرير من الصدر الأعظم يونس باشا إلى السلطان سليم وثيقة رقم (٦٧٤٣) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ إلى السلطان سليم (لم يذكر اسم المرسل) .

(٢) دفتر المهمة رقم (١٠٠) وثيقة رقم (٦٧٥٦) وتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ صور من هذه الرسائل مرفوعة إلى أمير دمشق .

(٣) دفتر المهمة رقم (١٠٠) وثيقة رقم (٦٧٦٩) وتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ تقرير مرفوع إلى السلطان سليم (لم يذكر اسم المرسل) .

وبينما السلطان طومان باي وأتباعه سائرون باتجاه الأهرامات الجيزة ، إذا
بفرقة قد أقبلت نحوهم وانضمت إليهم وكان علي رأسها الأمير قيت رحبي الذي كان
مسيحونا في الأسكندرية ، وكان من أهل الرأي والدين ، سجنه السلطان فانتصروه
الغوري خوفا من أن يقوم بعمل ضده . وبعد أن تولي طومان باي السلطنة اطلق
سراحه للاستعانة به في الحرب (١) .

أشار الأمير قيت رحبي علي السلطان طومان باي بتدوين جميع ما وقع له
من أحداث وحروب علي هيئة شعر .

واستحسن السلطان طومان باي هذه المشورة ، فشرع طومان باي ينشد
والأمير شريك يكتب قصيدة طويلة بلغت ٩٤ بيتاً ، تضمنت الأحداث التي وقعت
بين المماليك والعثمانيين ، ابتداءً من معركة مرج دابق وانتهاءً بهروب طومان باي
ولجونه الي الأهرامات ، وتصور ما آل اليه حال طومان باي وأجراكسه . ومطلع هذه
القصيدة :

دموع العين قاضت من مآق	وقلبي ذاب من كثر احتراقي
فلا ناري طفاها دمع عيني	ولا دمعي يفيض من اختناق
علي زمن تقضي في نعيم	بمصر والعلي والعزراق (٢)

ثم بعد ذلك لجأ طومان باي وأتباعه من المماليك والأعراب المراققين له الي
دهشور بعد أن أحسوا بتعقب الجنود العثمانيين لهم . وأمر أتباعه بالمناداة في
المناطق المجاورة أن الحراج مرفوع عن مصر لمدة ثلاث سنوات ، ومنأهم ووعدهم
بالكثير إذا هم انضموا اليه .

(١) دفتر المهمة رقم (١٠) وثيقة رقم (٦٧٧٧) وتاريخ ٢٩ صفر سنة ٩٢٢ هـ تقرير مرفوع
الي الصدر الأعظم يونس باشا (لم يذكر اسم المماليك) .

(٢) أحمد فؤاد متولي : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ . ٢١٢

انضم اليه بعض العريان والفلاحين فتشاور الجميع فيما بينهم ، واتفقوا على ان يتزعم الأمير شاريك فرقة مكونة من عشرة الال فارس ، ويتجه الي معسكر العثمانيين لقتالهم ، بينما يبقى السلطان طومان باي في دهشور حتي تأتية الأخبار من شاريك .

ولمحرك طومان باي الي الاصفحية^(١١) فانضم اليه الكثير من العريان ، وتمكن في مناوراته مع العثمانيين ، ان ينزل بهم بعض الخسائر .

ولما بلغ الخبر السلطان سليم استشاط غضبه ، وندم علي دخوله مصر . وخشى ان يطول به المقام في مصر ويتركه فصل الشتاء ، فتقطع عنه اخبار عاصته ، وداخلته الرساوس والشكوك من الدول الأوربية النصرانية المجاورة لبلادها ، ان يغيروا علي الدولة العثمانية وينزعوا منها بعض املاكها .

وبينما هو علي هذه الحال بلغه خبر خروج بلاد الاصفحية عن طاعته ، وثورتها عليه ، وانضمامها الي طومان باي ، فأمر بتشكيل فرقة من عدة آلاف فارس ، ومن بينهم خمسمائة من الرماة لطاردة طومان باي ، واستند قيادتها لجان بردي الغزالي ، وارسل معهم زيادة علي ذلك خمسمائة من الامراء الجراكسة الذين انضموا اليه^(١٢) .

استعد الغزالي للمسير الي الاصفحية وارسل رسالة الي طومان باي ينصحه فيها بالتسليم ، الا أن الأخير رفض ذلك رفضاً قاطعاً . عند ذلك ارسل الغزالي وقوداً من قبله محملين بالرسائل الي مشايخ القبائل العربية الساندين لطومان باي ، يحثهم علي الانضمام للعثمانيين ويعددهم بتأمين حياتهم وحياة ابنائهم وأسرهم . فرفضوا فسار اليهم فوجدهم علي اهبة الاستعداد لملاقاته . فدارت بينهم وبينه

(١١) من قري مركز الصف بمحافظة الجيزة .

(١٢) أحمد متولي ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ و ٢١٥ .

معارك قوية كان النصر فيها حليف العثمانيين ، وولي الاعراب هاريين ، وحل الجيش العثماني بقيادة الغزالي (١١) ، واستباحها ونهبها (١٢) ، ولما سمعت القبائل العربية ما حل بأخراجهم في الاصفحية اعلنوا العصيان ، وانتهر الامير يحيى بن أزيك السلوكي الذي كان مقيما عند بني حزام تلك الفرصة ، وجمع أعداداً منهم ، وسار بهم حتي وصل باب النصر ، وباب الشعيرة ، وقتلوا كل من صادفوه في طريقهم من العثمانيين ، ثم اتجه بعد ذلك الامير يحيى بن أزيك الي معسكر السلطان طومان باي وانضم اليه . فرحب به الأخير .

أصدر السلطان سليم أوامره بربط المراكب بعضها ببعض باحكام وأتقان بين ضفتي النهر ، وأمر بعبور الجيش علي المراكب ، فعبروا جميعاً من خيالة ومشاة ، وكان معهم الامير محمد بن قانصوه الغوري ، ومستشار السلطان سليم خاير بك . وترك سليم خلفه الصدر الأعظم يونس باشا وفرقة من الجيش لحفظ الامن في المدينة . وأوصاه بالرسال الغزالي اذا عاد إلي المعسكر فما كان منه الا ان كتب إلي الغزالي مرسوماً يأمره بعبور النيل الي بر الجيزة للاتقاء السلطان ومساعدته علي قتال المال بك (١٣) .

ولما عبر السلطان سليم بمن معه الي بر الجيزة كان يسير بتأني وروية نظراً لما معه من المدافع والاحجار والانتقال .

وأثناء تحركات السلطان سليم ، كان الأمير شاريك قد وصل إلي بر الجيزة ، وعن يمينه الامير قانصوه العادلي ، ويحيى بن أزيك ، والأمير دولتباي الكبير حاكم الصعيد ، والأمير قلج .

(١) دفتر المهمة رقم (١١) وثيقة رقم (٧٣٢) وتاريخ ٤ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من جان بردي الغزالي الي السلطان سليم .

(٢) دفتر المهمة رقم (١٣) وثيقة رقم (٧٢٣٨) وتاريخ ٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من الصدر الأعظم يونس باشا إلي جان بردي الغزالي

وأثناء سير الجيش العثماني ، لاح لهم جيش كبير مقبلاً نحوهم . فلما اقتربوا منهم إذا هم عرب الفيوم ، وأخبروا السلطان سليم بأن الأمير شريك الأعور قد سار لحربه ومعه قرابة ألفين من خيار الجراكسة ، فاستعد سليم للملاقاة .

وما إن تقابل الجيشان حتي شن الأمير شريك عليهم حملة واحدة ، فأطلق العثمانيون عليهم المدافع والبنادق والمكفيات والمسبقيات ^(١) فوقع الكثير من المصالحك في القتل ، وهرب الكثير منهم من ميدان المعركة ، ولم يثبت منهم إلا قلة . قاتلوا قتال الأبطال ومع ذلك استطاعوا إجبار الجيش العثماني على التقهقر إلى الخلف .

عندئذ أمرهم سليم بالهجوم الجماعي على الأمير شريك ، واشتدت المعركة بين الجانبين . وكان السلطان سليم يبحث جيشه على الإستماتة في الحرب وبعدهم وبعينهم بالنصر . وما قال : (أنظروا لهم ، فإنه ما بقي منهم إلا احتسائة فارس ، انزلوا عليهم بجمعكم وابطشوا عليهم بقوتكم ولا تبقوا منهم علي أحد ، واقطعوهم إلي أهد الأبدن ، واسرعوا في الحركات) ^(٢) كما كان الأمير شريك يبحث جنده وشجعهم علي القتال إلا أن الجيوش العثمانية تكاثرت عليهم مما اضطر شريك إلي التراجع إلي الخلف متظاهراً بالهزيمة واستمر الكر والفر حتي غروب الشمس حيث رجع كل فريق إلي معسكره .

جلس الأمير شريك يتباحث الوضع مع قاداته . وبينما هم علي ذلك إذ أقبل عليهم رسل من غلومان باي يبلغونهم أن السلطان طرمان باي مقيم عند دهشور ، وأنه يأمرهم بالسير إليه وملاقاته . فامتثل الأمير طرمان للأمر واتجه لملاقاة طرمان باي ماراً بالعسكر العثماني في منتصف الليل . ولكن السلطان سليم لم يتعرض لهم خوفاً من أن يكون ذلك كمين لهم .

(١) المكفيات والمسبقيات : أكتان من آلات الحرب ، استعملها العثمانيون في حروبهم ضد المصالحك الذين لم يكن لهم عهد بها من قبل .

(٢) ابن زبيل : المصدر السابق ، ص ٩٧ .

التقى الأمير شاريك بطومان باي في الوردان ^(١) ثم بعث الأخير برسالة إلى زعيم عرب غزاة حماد بن خبير يحضه فيها على الإلتزام إليه . وعنيهم بالوعد إن هم انضموا إليه . وإن امتنعوا فعليهم إتخاذ موقف المحايدة وعدم التدخل في المعارك غير أن عرب غزاة رفضوا طلب طومان باي الإلتزام للمصالحك .

أمر طومان باي جيشه بالرحيل ، فساروا حتي وصلوا أم دينار ^(٢) واستقبلهم أهلها وياتوا بها تلك الليلة .

وفي صباح اليوم التالي هاجمهم جان يردي الغزالي ، علي حين غرة ، فتصلوا له ودارت بينهما معركة قوية ، تعرض فيها الغزالي لطعنة في خاصرته من الأمير شاريك . فحمله أتباعه إلى خيمته وعالجوه حتي شفي . وأثناء المعركة أقيمت جموع عرب غزاة الذين انضموا للعثمانيين . فأرسلهم سليم لمساندة جيش الغزالي . ودخلوا في صراع مع المصالحك . وفي هذه المعركة تعرض المصالحك لمواقف صعبة نتيجة لتدخل عرب غزاة في المعركة ، مما قوي الجبهة العثمانية .

كما أن عبور الصدر الأعظم يونس باشا إلى الضفة الغربية وإلتزامه إلى المعسكر العثماني قوي من مركز السلطان سليم .

(١) قرية من قري محافظة الجيزة ، قسم إمامية .

(٢) قري قديمة من قري مركز الجيزة .

معركة دهشور

أشار جان بردي الغزالي علي السلطان سليم بتقسم الجيش العثماني إلى ثلاثة أقسام ، قسم بقيادة إياس باشا ، وقسم بقيادته هو (الغزالي) والقسم الثالث بقيادة السلطان سليم ، ويسير كل جيش في جهة ثم تطبق الجيوش الثلاثة فجأة علي جيوش الماليك ويبيدونهم . فاستحسن السلطان سليم هذه المشورة وأمر بتنفيذها فوراً .

وأحاطت الجيوش العثمانية بالماليك ، ثم قلمت جموع عرب غزالة من جهة رابعة ، وضيقوا الحثاق علي الماليك الذين أصبحوا في موقف لا يحسنون عليه . ولما رأي طرمان باي تلك الجموع استعد للاقتاتهم . وكان معه من الأمراء شاريك ، ويحيى بن أزيك ، وأبرك ، ودولتاي ، ورزمك الناشف .

وفي يوم الخميس ١٠ ربيع الأول تلاقي الجيشان عند دهشور . وجرت معركة حامية أشد من معركة الريدانية . انتصر فيها العثمانيون ، وقتلوا من الماليك أعداداً كبيرة حتي أن بعضهم من حراجه المؤلف ألقى بنفسه في النهر ، وتفرق البقية . وسار السلطان سليم بعد هذا النصر إلي قرية وردان ومكث بها عدة أيام ، ثم أخذ يتجول علي الأهرامات وتعجب من بنائها . وفي يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول ، أمر السلطان سليم بالمتابعة في القاهرة بإبطال العملة المتداولة ، وسك عملة جديدة كتب عليها اسمه وكانت خفيفة الوزن (١١) .

(١١) دفتر المهمة رقم (١٢) وثيقة رقم (٧٣٤٩) وتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلي أمير دمشق وقاضي القضاة .
ابن زنيل ، المصدر السابق ، ص ١١٩ و ١٢٠ .
ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٢ و ١١٣ .

إلتجاء طومان باي إلي قبيلة محارب

بعد أن تعرض السلطان طومان باي للهزيمة القاسية في معركة دهشور ، حيث قتل فيها الكثير من أتباعه من أبرزهم الأمير قانصوه كرت . سار إلي قرية في جنوب وودان التي أقام بها السلطان سليم وعسكر بها . واجتمع بأصحابه ، وأخذوا يتشاورون فيما بينهم . فقال طومان باي لهم : " والله يا إخواني ما أظن إلا أنه دولتنا قد زالت . فإنني أرى أننا كلما فعلنا شيئاً نريد أن تكون فيه المصلحة ، فما يكون أمرنا فيه إلا بضد ما نريد ، وأرى أن أعدائنا أمرهم يزيد فكم قتلنا منهم من أنوف ومع ذلك أرى كلما له يزيد . وأنّ الغالب علي ظني زوال ملكتنا ، وأنّ الظفر لعنونا . " (١) .

أمر أتباعه بالمسير إلي مدينة سخا (٢) بالقرب حيث الشيخ حسن بن مرعي (٣) وابن عمه شكر شيوخ عرب محارب ، اللذين ولّاهم علي تلك المناطق وأخذ عليهم العهد والمواثيق والإيمان بأن يكونوا معه في السراء والضراء ، في وقت الرخاء والشدة وفي السلم والحرب .

(١) ابن زنبيل ، المصدر السابق ، ص ١٢٠ و ١٢١ .

(٢) بلد من أعمال محافظة كفر الشيخ ، كانت كورة وقصبة الكورة القريبة في عهد الدولة الأيوبية . وكان بها دار الوالي ، إليها ينسب الشيخ علي السخاوي المقرئ النحوي اللغوي . والحافظ الشهير محمد شمس الدين السخاوي صاحب كتاب الضوء اللامع في أهل القرن التاسع .

(٣) سجنه السلطان قانصوه القوري وحكم عليه للأبد ، وما أن تولي طومان باي مقاليد الحكم في الدولة المملوكية حتي أطلق سجنه . وعينه حاكماً علي بعض المناطق في القرية . ورئيساً هو وابن عمه علي شيوخ عرب محارب .

وفي منتصف الليل رحل طومان باي وأتباعه من معسكرهم قاصدين أوطان
عرب المحارب . ولما رآهم الأمير جان بردي الغزالي . خرج في أثرهم ومعه خمسة
من أتباعه . فلما رآهم اتجهوا نحو الغربية . فقل راجعاً إلي معسكر السلطان
سليم . فأخبره بسير السلطان طوماي باي وأتباعه وتوجههم إلي ناحية الغربية .
فطلب سليم مشورته . فأشار عليه بأن يرسله في أثرهم ويكون معه خاير بك
وإياس أغا ومعهم أعداد من الجنود .

فأمر السلطان سليم بتجهيز جيش تحت إمرة الوزير فرهاد باشا . ومعه خاير
بك والغزالي . ويكون تحت تصرفه .

اقترب طومان باي وأتباعه من مدينة سخا^(١) التي كان مقيماً بها حسن بن
مرعي وابن عمه شكر ولما رأي خيل المسالك مقبلين عليهم تبادروا ومعهم فرسان
ومعدات القبيلة إلي جيادهم لاستقبال السلطان طومان باي والترحيب به . وما أن
اقتربوا من السلطان طومان باي وأتباعه حتي ترجلوا عن جيادهم وسلموا عليه
وأتباعه . وعرضوا عليه واجب الضيافة فرد عليهم طومان باي : " ما نحن فاضون
للضيافة ولا لغيرها ، والعدو في أثرتنا ، وقامت علينا العيان من عرب غزاة . وما
جئتم لك إلا لتنظر لنا محلاً نحتمي فيه . ثم تدبر أمرنا فيما فيه
الصلاح لنا".^(٢)

(١) يذكر ابن إيّاس أن حسن بن مرعي وابن عمه شكر التقيا بطومان باي عند مدينة تروجة.
ثم نراه في نفس الرواية يناقض نفسه . ويذكر أنهما التقيا به في ضيعة البرطة . وهذا
تناقض ظاهر في رواية واحدة . والذي أرجحه أنهما التقيا به في مدينة سخا مركز
حكمهما . وهذا ما ذكره ابن زنيل الذي هو خير من يؤرخ لهذه الحادثة لإتصاله المباشر
بالمسالك الجراكسة وخرجه معهم أحياناً .

(٢) ابن زنيل . المصدر السابق . ص ١٢٢ .

رحب آل مرعي بقدوم السلطان طومان باي فركن إلي ولاتهم وأحضر لهم مصحفاً ، وحلفا عليه أن لا يغتوا ولا يغتروا به ، ولا يدلان عليه بشئ من الأشياء ولا لسبب من أسباب الملك ، ولا يدلان عليه . فحلفا له علي الصحف سبع مرات فأطمئن قلبه إلي ذلك واستقر عندهما ^(١) .

عرض عليه الحسن بن مرعي مخبئاً صعباً انتحاه ، وهو غابة في واد كبير واسع وافر المياه ، لا يستطيع الدخول منه سوى إثني مئتين وذلك لشدة ضيقه ، وأخبره بأن هذا المكان هو ملاذه ، إذا هاجمهم عدو لا طاقة لهم به .

طلب منه طومان باي المسير إليه ، فلما عاينه انقبض خاطره وأحس بقلبه أنه غير مأمون وأنه سيحدث له ما لا محمد عقباء ، فأصك بلجام فرسه ووقف في مكانه ومجبر في أمره ، لكنه سلم لأمر الله عز وجل . وسار مع حسن بن مرعي حتي نزل هو ومن معه في صدر الوادي وعسكر هناك . وبعد أن أطمئن حسن بن مرعي علي استقرار "طومان باي" ومن معه . خرج عنهم ليستطلع الأخبار .

(١) ابن إياس ، الصغر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

إلقاء القبض علي طومان باي وشنقه

بعد خروج الحسن بن مرعي من عند " طومان باي " حدثته نفسه بالخيانة. ودارت مجادلة بينه وبين أمه في أمر الخيانة وحذرت والدته من هذا العمل . وأخذت تذكره بما للسلطان " طومان باي " عليه من أباد ببضاء ، وبالإيمان والعهود التي قطعها علي نفسه بعدم الخيانة . فلم ينتصح لكونه يطمع في المكافأة. وما أن انتهت المعادثة بينهما حتي أقبل فرسان القبيلة مصرعين ونادوه بالخروج إليهم لملاقاة الجيش العثماني القادم نحوهم .

سأل القائد فرهاد باشا الأمير حسن بن مرعي إن كان عنده علم عن طومان باي ، وطمعته بالأموال والمناصب إن هو دله علي مكانه .

فلما عرض عليه فرهاد باشا ذلك أخبره بأنه كفيل بإحضاره إليهم فخلع عليه الوزير فرهاد باشا خلعة سلطانية مذهبة ، وكذلك علي ابن عمه شكر . ووعدهم خيراً.

ورجع حسن إلي والدته فاستنكرت عليه الخلعة ومصدرها ، فأخبرها الخبر . فحذرت من عاقبة الخيانة . فتحير في أمره ، وانتهي بابن عمه شكر فشجعه قائلاً : " وهل عاقل يبيع عاجله بأجله ، لا تمل إلي الكفة الناقصة الخاسرة فيحصل لك الكسران " (٢) .

اتفق الإثنان علي السير للوزير فرهاد باشا العثماني . وأبلغاه بمخبر " طومان باي " وأتباعه ، فأرسل معها فرقة من جنده بقيادة أمير الروملي مصطفى باشا ومعه علي بك بن شهور والغزالي .

(١) ابن زنبيل ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(٢) العبيدي ، المصدر السابق ، ص ١٠٤ - ١٠٦ .

وعندما اقتربت الفرقة من مخبأ طومان باي وأتباعه ، وشاهدتهم "طومان باي" طلب من أمرائه أن يتفرقوا ويذهبوا إلى أي مكان أرادوا . فلما رآهم الغزالي فسح لهم المجال للخروج لما رأى السلطان طومان باي ليس معهم وبعد أن تفرق الأمراء عن سلطانهم . اقترب منه الجند العثماني ، وأرادوا القبض عليه حياً . فأغمدوا سيوفهم وأحاطوا بالسلطان طومان باي من جميع الجهات ، وأمسكوا به في يوم الاثنين ٧ ربيع الأول / ٧ أبريل ١٥١٧ م وأحضره مقيداً إلى مكان يدعى أم الدينار ، ثم نقلوه إلى الجيزة . ومنها عبروا به إلى بولاق مقر السلطان سليم ، وأرسلوا البشائر إلى " سليم " بالقبض على طومان باي . وما أن وصلوا إلى خيمة السلطان سليم حتى خرج لهم الوزير الأعظم يونس باشا ، وأمرهم بإنزاله في الخيمة ^(١) .

(١) لا نفر بعض المصادر التركية ومنها (روز نامه حيدر جلبي ، في كتابه : سلطان سلجمن إيران سلفه دالر مختارات ورواية ١٤٣ أ - ١٦٠ ب) .

أن القبض على " طومان باي " بدلالة حسن بن مرعي ، ولكنها تذكر أن الجنود العثمانيين أدركوه في صغور بالقرب من البحيرة ، فألقي بنفسه في النهر خوفاً من بطش الجنود ، فأنتقلوه من النهر وقبضوا عليه .

ويذكر جلال زاده قوجه نشاينجي مصطفى في كتابه : مآثر سليم خاني طاب ثراه . في ورقة ١٤٢ أن مصطفى باشا وجند الروملي قبضوا على " طومان باي " بعد هزيمته أمامهم في معركة لم يحدد مكانها .

(أحمد فزاد متولي ، المرجع السابق ، ص ٢١٧) .

وهناك روايات أخرى كثيرة مختلفة وردت في المصادر التركية لاداعي لذكرها . وكلها مع الاختلاف في الرواية تؤكد أن القبض على " طومان باي " كان عن طريق الجيش العثماني بعد هزيمته أمامهم . وتنفي هذه الروايات دلالة حسن بن مرعي ولم أعثر في الأرشيف العثماني على وثائق تبين كيفية وطريقة القبض على " طومان باي " مما يجعلني أعتمد على ماورد في المصادر والمراجع العربية للسبب المذكور آنفاً واختلاف المصادر والمراجع التركية في الرواية .

وفي صباح اليوم التالي مثل " طومان باي " أمام " سليم " . قام له السلطان سليم ، وأخذ يتأمله معجباً بشجاعته وجسارته ، وأجلسه بجواره . وأخذ يتحدث معه بأسلوب رقيق ، راعياً في ضمه إلي جانبه . ودار بين آخر السلاطين المالك ، وتاسع السلاطين العثمانيين حوار طويل ، أظهر فيه " طومان باي " رباطة جأش وشجاعته مدافعاً عن شرفه وشرف بلاده ، ومبدياً له أنَّ ما حدث من هزيمة إنما هو بإرادة الله تعالى .

إهتم سليم بكلام " طومان باي " وأبدي إعجاباً بالغاً بحديثه . فأمر بعدم قتله حتى ينظر في أمره . وكان " سليم " يحسن إستقباله . ويستفسر منه عن شئون مصر وإدارتها وجباية خراجها ^(١) .

وأجتمع السلطان سليم بإمراء دولته . وبينما هم يتحدثون في أمر طومان باي إذا بالبشارة تأتي من قبل الأمير أحمد بن بكر بالقبض علي الأمير شريك الأعور . ففرح سليم وأمر بإحضاره . فلما مثل بين يديه . دارت بينهما معادثة قوية . دافع فيها الأمير شريك عن نفسه ، فأمر السلطان سليم بإخراجه ^(٢) .

شاع بين الأوساط الشعبية القبض علي طومان باي . وأنَّ السلطان سليم سيقبض عليه . ويأخذه معه إلي إستانبول . أو يرسله متقبلاً إلي مكة المكرمة مدة حياته ، غير أن خاير بك ، وجان يردي الفزالي لم يعجبهما إبقاء سليم علي حياة طومان باي ، فأخذوا يدبران الكيدة . ويحرضان السلطان سليم علي قتله بحجة أنَّ

(١) ابن زنبل . المصدر السابق . ص ١٣٢ - ١٣٦ .

أحمد شلبي . موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج ٥ . ص ٢٥٩ ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م .

(٢) ابن زنبل . المصدر السابق . ص ١٣٦ - ١٣٩ .

واهن إياس . المصدر السابق . ج ٣ . ص ١١٥ .

لا بقاء للملكه مادام " طومان باي " علي قيد الحياة . وكتبنا رسالتين ^(١١) إلي السلطان سليم خفية دون علم وزرائه . لأن أغليهم وعلي رأسهم الصدر الأعظم يونس باشا لا يؤيدون مشورات خاير بك لسليم ^(١٢) .

استطاع هذان الخائنات التأثير علي السلطان سليم خاصة بعد ما قام به الجراكسة والعربان وأهالي القاهرة من شغب عندما علموا بالقبض علي "طومان باي" فكان ذلك عاملاً مساعداً علي التعجيل بقتل طومان باي ^(١٣) .

قبل إعدام طومان باي بهر عين قرر السلطان سليم تولية يونس نائباً عنه في مصر . وفي نفس اليوم كتب رسائل التبشير بالفتح بالفارسية وأرسلت إلي الدول الصديقة تبشيراً بالنصر ^(١٤) .

(١١) دفتر المهمة رقم (١٣) وثيقة رقم (٧٣٥١) وتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ .

صورة رسالة من خاير بك إلي السلطان سليم .

وثيقة رقم (٧٣٥٨) وتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ .

صورة رسالة من جانب بردي الغزالي إلي السلطان سليم .

(١٢) إبراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

(١٣) دفتر المهمة رقم (١٣) وثيقة رقم (٧٣٧١) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من

الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .

(١٤) عن محتويات هذه الرسائل أنظر :

دفتر المهمة رقم (١٥) وثيقة رقم (٧٥٤١) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من

السلطان سليم إلي ابنه وولي عهده سليمان .

وثيقة رقم (٧٥٤٣) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلي أمير

دمشق وقاضي القضاة . وثيقة رقم (٧٥٥٢) وتاريخ ٢٠ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من

الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .

وافق السلطان سليم علي إعدام طومان باي بعد أربعة عشر يوماً من القبض عليه . وفي يوم الإثنين ٢٨ ربيع الأول ٩٢٣ هـ / ١٣ أبريل ١٥١٧ م أمر السلطان "سليم" بإخراج " طومان باي " آخر سلاطين المماليك من سجنه في إمبابه ، فأخرج من سجنه وصار وسط . . . ٤ جندي يحرسونه حتي وصل إلي بولاق . ثم أمرهم السلطان " سليم " بالسير إلي باب زويلة . وظل " طومان باي " سائراً معهم رافع الرأس وهو يسلم علي الناس طوال الطريق . فلما رآه المصريون جهشوا بالهكاه . والصياح . وكان هذا اليوم عليهم من أشام الأيام ^(١) .

وما أن وصل طومان باي إلي باب زويلة . حتي أنزله الحرس عن فرسه . وأرخصي له المشاعلي حبل المشقة . وتم إعدامه . وحزن عليه الناس حزناً كبيراً . نظراً لشجاعته وبطولته في التصدي للعثمانيين . ولشجائته في الحرب واستمراره في المقاومة حتي آخر لحظة . هذا علاوة علي حسن سمعته وحسن أخلاقه . وحسن سياسته للناس .

بسبب شق السلطان طومان باي علي باب زويلة . عرف هذا الباب فيما بعد بهاب التولي - بوابة المتولي - ولعلّ إختيار هذا الاسم لكونه لقب السلطان طومان باي قبل توليه السلطنة .

يذكر ابن زنبل أن السلطان " سليم " حضر الصلاة علي " طومان باي " . وأرسل ثلاثة أكياس من الفضة للتصدق عليه . وأنه في نفس الوقت الذي أمر ليه بشق السلطان " طومان باي " . أمر بإحضار الأمير شاربك الأعور وضرب عنقه .

(١) ابن زنبل . المصدر السابق . ص ١٤٩ .

حسن عثمان . تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨) في كتابه الجبل في التاريخ المصري . القاهرة ١٩٤٢ م . ص ٢٤٢ .

فأُتي أبنائه وغلّامه الحاج فارس ، وأُستأذِنوا في أخذه ، فأذن لهم ، فاتوا به إلى المدرسة البيبرسية ^(١) وغسلوه وصلوا عليه ، ودفنوه في فنانها ^(٢) .

وردأ علي شلق " طرمان باي " حاول بعض السالِك الإِنتقام لمقتله ، حيث أن أحد أمرائهم ويدعي قانصوه العادلي ، لما بلغه خبر شلق " طرمان باي " ، قرر الشار له بقتل السلطان " سليم الأول " ، ودبر حيلة حيث لبس زي العرب ، وأخذ معه جماعة من أهل القوة ، وركب مركباً ليلاً قاصداً المكان الذي يجلس فيه السلطان . وكاد قانصوه أن يصل إلى مكان " سليم " ، لولا تيقظ حراسه الناريين ، وماكان من قانصوه العادلي إلا أن ألقي بنفسه في النيل ، فأرسل سليم في أثره وأسكوه به . وأتوا به إلى السلطان " سليم " فأعجب بحراسته ووفائه لسلطانه " طرمان باي " . وعفا عنه وأبقاه معه ^(٣) .

في يوم الجمعة ٢٥ ربيع الأول ٩٢٣ هـ خرج السلطان سليم من معسكره في إمبابة قاصداً القاهرة ، ودخلها من باب زويلة ، وتوجه من هناك إلى الجامع الأزهر . وزينت له القاهرة ، وصلى في الأزهر صلاة الجمعة ، ومكث بالقاهرة عدة أيام ^(٤) .

أرسل السلطان سليم جماعة من أمرائه ووزرائه وأهل مشورته إلى المدرسة الغورية ، وأرسلوا في استدعاء جماعة من القضاة وأعيان التجار ، يختلف أنواع

(١) كانت ملحقة بجامع بيبرس المبرود بحمي الجودرية خارج المؤيد .

(٢) ابن زنبيل ، المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٣) دفتر المهمة رقم (١٥) وثيقة رقم (٧٥٦٣) وتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم (القاهرة) إلى ابنه ولي عهده سليمان .

(٤) دفتر المهمة رقم (١٥) وثيقة رقم (٧٥٧١) وتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من المصدر الأعظم يونس باشا إلى أحمد باشا (إستانبول)

تجارتهم . وطائفة من البنائين والتجارين والمرخين والبلطين . وغير ذلك من أرباب
الحرف . واختاروا أعداداً منهم للسفر إلى استانبول عاصمة الدولة العثمانية ^(١) .

وقد ضم الوفد المرسل إلى الأستانة بعض الذين ترددوا على الحكم العثماني
من بين الأمراء والعلماء وعائلاتهم ، بلغ عددهم ٢١ . . شخص أو ٧٠ . . عائلة ^(٢)
ويبدو أن هذا الإجراء يتفق مع عادة مألوفة في الدولة العثمانية بإجراء تنقلات بين
السكان ، أثر الفتح ، لنقل الخبرات ، أو لترسيخ الصبغة العثمانية في البلد
المنفتح.

ويذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليم أخذ معه عند خروجه من مصر ألف
جمل محملة بالذهب والفضة ^(٣) . وهذا الرأي غير صحيح ومثالي للحقيقة والواقع
فالإقتصاد المملوكي كان متدهوراً بعد تحول طرق التجارة العالمية عن مصر . وهذا
ما جعل الماليك يُلجأون إلى فرض الضرائب الفادحة على الناس لسد العجز في
مالية الدولة المملوكية .

(١) دفتر المهمة رقم (١٥) وثيقة رقم (٧٥٨٩) وتاريخ ٢٦ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من
السلطان سليم إلى الوزير محمد باشا .

(٢) لمعرفة تفاصيل أسماء هؤلاء الأشخاص ووظائفهم وأعمالهم أنظر :

دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨١٠٠) وتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من
السلطان سليم إلى ابنه ولي عهده سليمان .

وثيقة رقم (٨١٢٢) وتاريخ ٢٧ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلى ابنه
ولي عهده سليمان .

(٣) محمد بن أبي السريد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة .
مخطوطة بالتحف البيطاني بلندن تحت رقم Additional MS. 9973 ص ١٥ .

ومما يؤكد عدم صحة الرأي المذكور آنفاً الرسالتين اللتين بعث بهما السلطان سليم وهو في الشام إلى ابنه وولي عهده سليمان (القانوني) يذكر له فيها أنه لم يكسب من بلاد مصر شيئاً يذكر . بل أنه أنفق على إصلاح شتونها كل ما حصله معه من ذهب وفضة من إستانبول (١) .

وفي يوم الأحد ٢٧ ربيع الأول أتى السلطان سليم بشخص من العشمانيين امرأة من السوق وزني بها . وبعد ثبوت الزني وانتفاء موانع الرجم ، أمر السلطان سليم به فرجم (٢) .

(١) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨١٢٧) وتاريخ ٩ شوال سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم (دمشق) إلى ابنه وولي عهده سليمان (إستانبول) .

روثيقة رقم (٨١٤١) وتاريخ ١٢ شوال سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم (دمشق) إلى ابنه وولي عهده سليمان (إستانبول) .

(٢) ابن إياس ، المصنف نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٦ و ١١٧ .

وصول الأسطول العثماني إلى الإسكندرية

وبعد ستة وثلاثين يوماً من إعدام السلطان السلوكي طومان باي . وصل الأسطول العثماني ، الذي كان مقرراً أن يشترك في ضم مصر لأملاك الدولة العثمانية ، إلى شواطئ الإسكندرية في يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع الثاني / ١٩ مايو ، وكان يتكون من ٣.١ قطعة بحرية .

وما أن بلغت الأخبار للسلطان سليم بوصول الأسطول العثماني حتى أصدر أوامره للجيش العثماني بالتوجه إلى الإسكندرية . وفي يوم الخميس ٧ جمادي الأولى / ٢٨ مايو توجه السلطان سليم إلى الإسكندرية للتفتيش على الأسطول . وكان يرافقه الوزير محمد باشا ، وكاتب الديوان حليمي جلبي . كما توجه الصدر الأعظم يونس باشا إلى الإسكندرية عن طريق البر للاقابلة السلطان سليم الذي سلك طريق البحر (١) .

وصل السلطان " سليم " إلى الإسكندرية في ضحى يوم الثلاثاء ٨ جمادي الأولى وأمر نائبه في القاهرة بإرسال الخليفة العباسي المتوكل على الله إليه في الإسكندرية . وقد خرج الخليفة العباسي في هذا اليوم وبصحبه أولاد عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد ، وخرج بصحبه أيضاً الناصر محمد العلاني صهر الخليفة ،

(١) دفتر المهمة رقم (١٦٦) وثيقة رقم (٨١٤٧) وتاريخ ٦ جمادي الأولى سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلى الصدر الأعظم يونس باشا .

ويونس بن الأتابكي سودون العجمي ، وغيرهم من الأعيان ، متجهين صوب
الأسكندرية (١) .

في يوم الجمعة ١٥ جمادى الأولى أدى السلطان سليم صلاة الجمعة بالمسجد
الغربي ، ثم زار بعض الآثار هناك . ثم تحرك عائداً إلى القاهرة في اليوم الثاني
وأستقر في حي الروضة ، وأمر ببناء قصر في أم القياس ، ليكون قصراً للحكم في
مصر (٢) .

(١) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨١٥٣) وتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ٩٢٣ هـ من
الصدر الأعظم يونس باشا إلى مقام الصدارة في إستانبول .

عاش الخليفة العباسي المتوكل علي الله في إستانبول حياة ملؤها الإسراف والبهخ ، وكان
دائم الخلاف مع أولاد عمه ، مما أدى إلى غضب السلطان عليه ، فأمر بإبعاده خارج
العاصمة - وتذكر بعض المصادر أن السلطان سليم أمر بسجنه - ولما تولى سليمان
(القانوني) عرش العثمانيين أعاده إلى إستانبول ، ثم أذن له فيما بعد بالعودة إلى
القاهرة . وقد عاش المتوكل في القاهرة وهو يحمل لقب خليفة إلى أن مات سنة ٩٤٥ هـ
/ ١٥٣٨ م .

وتسكت المصادر التركية والعربية التي عاصرت ضم الشام ومصر للعثمانيين عن ذكر شيء
عن الخلافة . أما المؤرخون الذين لم يعاصروا ذلك فمنهم من يقول بتنازل الخليفة العباسي
عنها إلى السلطان "سليم" العثماني . ومنهم من ينفي هذا التنازل ويؤكد على عدم
إنتقال الخلافة إلى العثمانيين .

ولا يوجد لدينا دليل من وثيقة أو مصدر يؤكد إنتقال الخلافة إلى السلطان "سليم" كما أن
"سليم" لم يتخذ هذا اللقب من ضمن ألقابه . وأكتفى بلقب خادم الحرمين الشريفين ،
ولم يتخذ سلاطين آل عثمان لقب خليفة إلا في القرن الثامن عشر الميلادي لأسباب
سياسية وكيفما كان الأمر فإن الخلافة العباسية قد أنتهت مع وفاة المتوكل وأصبح سلطان
الدولة العثمانية هو أعلى شخصية في العالم الإسلامي كله لا تعلوها شخصية أخرى
وأصبح خليفة بقره السلاج والواقع .

(٢) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢١ .

أرسل شريف مكة زين العابدين بركات ابنه الأكبر محمد أبا نبي إلى
السلطان سليم في القاهرة ليقدم الولاء والطاعة للسلطان "سليم".

وفي يوم الإثنين ١٦ جمادى الثانية دخل ابن الشريف بركات القاهرة،
فاستقبله السلطان سليم إستقبالاً حافلاً ، وبعد ستة أيام قدم محمد أبا نبي الطاعة
والولاء وبعض الهدايا للسلطان سليم ، ثم سلمه مفاتيح الأماكن المقدسة وبعض
الآثار الموجودة في مكة والمدينة ، فأقر السلطان الشريف زين الدين بركات علي
شراقة مكة ، وبعث مع ابنه رسالة بالعربية إليه ، تتضمن الموافقة علي أن تكون
شراقة مكة المكرمة له ولابنه الأكبر من بعده (١١) .

وتنهج هنا النهج الأمراء الماليك الذين كانوا يحكمون بعض مناطق اليمن
باسم الدولة المملوكية وقد قبل سليم ذلك ، وأقرهم في حكم اليمن باسم الدولة
العثمانية (١٢) .

(١١) السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (١٤٨٠ - ١٩٠٩) القاهرة ،
١٩٧٠ م ، ص ١٠١ .

فائق بكر الصراف ، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٢
- ١٣٣٤ هـ / ١٨٧٦ - ١٩١٦ م . القاهرة ، مطبعة سجل العرب ، ١٩٧٨ م ، ص
٤٨ .

عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، الطبعة الثالثة ،
١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م . دار المثنى ، الدوحة ، قطر ، ص ٢١ .

عبد العزيز الشاري ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها .

ج ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٢٠ .

(١٢) محمود صالح منسي ، حركة البقطة العربية في الشرق الأميري ،

دار الإلهام العربي للطباعة ، الناشر : دار الفكر العربي ، ١٩٧٨ م ، الطبعة الثانية ،

دراسات في تاريخ الشرق العربي (١) ، ص ٣٠ .

قواعد الحكم العثماني في مصر

شرح السلطان " سليم " في تنظيم أمور الحكم في مصر قبل مغادرتها إلي
إستانبول فعين خاير بك والياً علي مصر في يوم الإثنين ١٣ شعبان / ٣١
أغسطس ١٥١٧ م ومنحه لقب الباشوية ، وأوكل إليه كافة أمور البلاد الإدارية
والاقتصادية وغيرها من مهام الوالي ^(١) . كما أصدر قراراً بعزل يونس باشا من
حكم مصر .

وترك له حامية عثمانية مقبضة في مصر ، مكونة من أربعة آلاف جندي
وقسمها إلي أربع فرق . وأوكل إليها حفظ النظام في البلاد والنود عنها ، وجباية
الحراج . وعين لكل فرقة قائداً مستقلاً عن الوالي تمام الإستقلال يرجع أمره إلي
السلطان مباشرة .

وهذه الفرق : فرقة الإنكشارية ، وتعتبر أقوى الفرق العثمانية ، وعين خير
الدين باشا قائداً لها ، كما عينه نائباً علي القلعة ، وفرقة الروملي ، وأسد قيادتها
إلي ستان بك ، وفرقة الأناضول ، وأسد قيادتها إلي قايق بك ^(٢) . وفرقة
قبرخلقلي وأسد قيادتها إلي مصطفى بك .

(١) أحمد فزاد متولي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

(٢) أحمد حسين ، موسوعة تاريخ مصر ، الجزء الثالث ، دار الشعب ، ص ٨١٥ و ٨١٦ .

أحمد متولي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

هند أسكندر ، تاريخ مصر ، دار المعارف بمصر ، ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

عبد النعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية .

دار الجليل ، بيروت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ، ص ٧٦ و ٧٧ .

وقسم البلاد من الناحية الإدارية إلى مديريات ، بلغت ٢٤ مديرية ، وعلى رأس كل منها أمير مملوكي ، وبذلك لم يغير الوضع الإداري الذي كان سائداً من قبل ، وفي الوقت نفسه قسم مصر من الناحية السياسية إلى ثلاثة أقسام كبيرة جعل علي كل قسم رئيساً من الماليك لمعاونة خاير بك في حكم البلاد . ويكون هؤلاء الثلاثة تابعين للديوان في إستانبول ^(١) .

وفي يوم السبت ١٨ شعبان عيّن السلطان سليم الأمراء الماليك علي المديريات المصرية ، حيث ولي الأمير غانم السيفي علي البهنسا والفيوم ، وحمام بن خبير شيخ عرب غزالة علي إقيم الجيزة ، والأمير علي بن عمر شيخ الهوارة علي إمارة الصعيد ومركزه في مدينة جرجا ، والشيخ علم الدين علي أراضى بن عدي ^(٢) .

وبعد أن ولي هؤلاء الأمراء علي مناصبهم ، أمر أن يكتب في الدواوين ولجميع الحكام بعدم التعرض لجميع أصحاب الإقطاعات والأرزاق والأوقاف والجوامع ، وأولاد الأمراء . وبالمذاة أمراء الجراكسة ^(٣) . وجعل لعنة الله ثلاث

(١) دفتر الجهة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨١٤٧) وتاريخ ١٥ شعبان سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلي ابنه ولي عهده سليمان في إستانبول ، وثيقة رقم (٨١٥٣) وتاريخ ١٧ شعبان سنة ٩٢٣ هـ إلي مقام الصدارة العظمى في إستانبول (لم يذكر اسم المرسل) .

(٢) ابن زنبيل ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ و ١٤٧ .

عبد الكريم رافق ، العرب والعشائون ١٥١٦ - ١٩١٦ ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) إسماعيل السلطان " سليم " بالأمراء الماليك الجراكسة بدل علي مدي مرفقه بوجه عام من الماليك ، وهذا ما توضحه وصيته بهم بالأل بنالهم أذي ، ويوضحه تركه السلطة في أيديهم ، وعدم المساس بإقطاعاتهم وتقاليدهم بعد أن أطمأن إليهم . ونتيجة لذلك فقد كان توليهم في العهد العثماني يفوق توليهم قبل ذلك .

(أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢٥٢) .

(هند اسكندر ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤٥) .

مرأت علي من غير أو بدل شيئاً من ذلك^(١١)

كما تشكل ديوان الوالي العثماني في مصر وكان يتكون من القادة العسكريين الستة ، ومن ٢٤ والياً ، ويجتمع هذا الديوان أربع مرات في الأسبوع ، ومهمته النظر في الشؤون الإدارية والاقتصادية ... وينوب هذا الديوان لا يستطيع الوالي تقرير أي عمل أو تنفيذه . وإذا تجاوز الوالي حدود سلطته فيرفع أعضاء الديوان الأمر إلى السلطان في إسطنبول^(١٢) .

وما قيام السلطان سليم بتلك الإجراءات والترتيبات التي أتخذها قبل مغادرته مصر . إلا لكي يضمن مصير الحكم العثماني في البلاد . ويضمن سلامة مصالح الناس ، وأيضاً ليحد من سلطة الوالي فيها علي الرغم من ثقته بخاير بك لدرجة أنه عزل وزيره الأول بونس باشا ونصبه مكانه في الولاية .

أما من ناحية التنظيم الاقتصادي في مصر . فقد ألغى السلطان " سليم " النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في عهد المماليك ، وأحل محله نظام الالتزام ، والذي يعني أن الحكومة تمتلك جميع الأراضي المصرية ، وتعطي بعضها للوالي ، والبعض الآخر لتنفقات الجند وحكام الأقاليم . وتطرح الباقي للمزايدة مقسمة إلى

(١١) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨١٦٦) وتاريخ ٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم (القاهرة) إلى أمير دمشق وقاضي القضاة .

وثيقة رقم (٨٢١٠) وتاريخ ٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ . من الصبر الأعظم محمد باشا (القاهرة) إلى إسطنبول .

(١٢) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨٢٢٣) وتاريخ ٢٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ من السلطان "سليم" إلى والي مصر الجديد خاير بك

أجزاء بين الراغبين في الإلتزام (١١)

يقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتي عن دخول السلطان " سليم " إلى مصر :
" ولما خلص له أمر مصر عفا عمن بقي من الجراكسة وأبنائهم ، ولم يتعرض لأوقاف
السلطين المصرية ، بل قرر مرتبات الأوقاف والمحيرات والعلوفات وغلال الحرمين
والأنبار ورتب للأيتام والشايع المتقاعدين ومصارف القلاع والمرايطين ، وأبطل
المظالم والكوسس والمغارم . ثم رجع إلى بلاده وأخذ معه الخليفة العباسي (١٢) .

(١) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨٢٣٧) وتاريخ ٢٥ شعبان سنة ٩٢٣ هـ من
السلطان سليم (القاهرة) إلى أمير دمشق وقاضي القضاة ، ووثيقة رقم (٨٢٤٠)
وتاريخ ٢٧ شعبان سنة ٩٢٣ هـ من والي مصر الجديد خير بك إلى أمير دمشق .
(٢) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

دار الجيل ، بيروت ، ج ١ ، ص ٣٧ .

عودة السلطان سليم إلى إستانبول

بعد أن أتم السلطان "سليم" ترتيب وتنظيم شئون مصر شرع في الإبتعاد للرحيل إلى عاصمة دولته إستانبول بعد أن مكث في مصر سبعة أشهر وثلاثة عشرة يوماً .

وفي يوم الخميس ٢٣ شعبان ٩٢٣ هـ / ١٠ سبتمبر ١٥١٧ م خرج السلطان سليم من بيت السلطان قايتباي ، وتوجه إلى الصليبية ، ومن ثم إلى الرملة ، ومن هناك خرج في موكب حافل ومعه الصدر الأعظم يونس باشا ، والدفتردار ، وبقية الوزراء والأمراء ، والعدد الكثير من جيشه مابين مشاة وخيالة ، وكان علي رأس مودعيه واليه علي مصر الأمير خاير بك (١) .

واصل السلطان سليم رحلته قاصداً بلاد الشام ، حتى وصل إلى بلبس في يوم السبت ٢٥ شعبان ، وهناك أصابته وعكة ، فبقي بها أياماً ، ثم أكمل مسيرته . وفي يوم الثلاثاء ٢٨ شعبان ، وبينما كان السلطان "سليم" متوجهاً إلى غزة ، جرت مناقشات حادة بينه وبين وزيره يونس باشا ، أغلظ فيها الأخير الكلام علي "سليم" منها قوله مخاطباً "سليم" : " ما الذي فعلته ؟ أخذت البلاد من الجراكسة ، ثم أعطيتها لهم ثانية وعاديتهم وقتلتهم ثم صافيتهم ، فما هذا الرأي ؟ فلو عرفنا ذلك ما جئنا معك ولا أطعناك في شيء من ذلك " . فغضب السلطان "سليم" وأمر بضرب عنقه وقتل في الحال (٢) .

وحمل السلطان سليم إلى غزة في يوم الجمعة ٩ رمضان . ففتح جان بردي الغزالي حكم ولاية كل من صند والقدس والكرك ونابلس ، ودخل السلطان سليم

(١) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٢ و ١٣٣ .

(٢) ابن زهبل ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

دمشق في يوم الخميس ٦ شوال . وبدأ يفكر في القضاء على المناوئين للحكم العثماني في الشام . وأثناء إقامته في دمشق وصلته رسالة من الشاه إسماعيل الصفوي مع بعض الهدايا ، ومزداها : " ملكتك كثيراً من البلاد والتبعة . استوليت علي مصر خاصة ، وأصبحت "خادم الحرمين الشريفين " . والآن أرضك أرض الاسكندر . لقد زال ما كان بيننا ، ولن يعود مرة أخرى . عد إلي مملكتك ، وأعود أنا إلي مملكتي . فلنصن دماء المسلمين سرياً . إنني سأحقق رغبتك وأمنيتك أبداً كانت " (١) .

اطلع "سليم" علي هذه الرسالة لكنه لم يطمئن إليها ، فأرسل الصدر الأعظم محمد باشا علي رأس فرقة قوامها ألفا جندي ووجهه إلي ديار بكر لمراقبة تحركات الشاه الصفوي عن قرب .

في يوم الإثنين ٢٢ محرم ٩٢٤ هـ / ٨ فبراير ١٥١٨ م ترك السلطان "سليم" دمشق بعد أن مكث بها ثلاثة أشهر وعشرين يوماً . وعين جان بردي الغزالي والياً علي الشام .

ووصل السلطان "سليم الأول" إلي حلب في يوم الجمعة ٢٢ صفر ، وفي يوم الخميس ٢٥ ربيع الثاني خرج منها قاصداً عاصمة بلاده أستانبول فوصلها يوم الأحد ١٧ رجب ٩٢٤ هـ / ٢٥ يوليو ١٥١٨ م (٢) .

(١) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨٢٣٧) وتاريخ ١٥ شوال سنة ٩٢٣ هـ من الشاه إسماعيل الصفوي إلي السلطان "سليم" .
(٢) ابن الغزي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

أسباب سقوط المماليك وانتصار العثمانيين

كما تقدم يتضح لنا بأن أسباب سقوط المماليك وانتصار العثمانيين يمكن إجماله في الأسباب الآتية :

أولاً : الخيانة المملوكية ، وهي من أقوى أسباب سقوط المماليك . لاسيما وأن تلك الخيانة قد صدرت من أصحاب مراكز مرموقة في الدولة المملوكية ، كبعض القادة العسكريين ، وحكام بعض المناطق الهامة على الحدود العثمانية المملوكية، وقد بدأت الخيانة المملوكية في معركة مرج دابق وظلت تؤدي دورها إلى أن شق السلطان المملوكي طومان باي ، وتمثلت الخيانة التي نشأت في صفوف المماليك في خاير بك أولاً ، وجان بردي الغزالي من بعد ثانياً ... وقد ساهمت خيانتهم في ضعف المماليك وهزيمتهم في النهاية . وقد ذكر طومان باي أن أكبر عوامل هزيمته خيانة بعض قادته ورجاله .

ثانياً : ضعف الإقتصاد المملوكي وتدهوره بعد تحول طرق التجارة مما أدى إلى عجز طومان باي إقتصادياً عن تمويل معاركه مع العثمانيين ، وعجزه عن إستمالة القادة والقبائل في مصر .

ثالثاً : سوء إدارة سلاطين المماليك - في الفترة الأخيرة - للمجتمعات التي يحكمونها في مصر والشام ... وذلك بعدم الإهتمام بصالح الناس ، وفرض الضرائب الفادحة عليهم مما جعل القبائل تنفضه عنهم وتنضم إلى صفوف العثمانيين علماً بحجم تخفيف مما حل بهم من ضنك المعيشة . وقد عرضت نماذج من ذلك خلال صفحات البحث .

رابعاً : تفكك الجيش المملوكي في أواخر أيامه ، وإشغاله بالنازعات الداخلية وقيامه على نظام الجللبان والقرانص الذي أدى إلى تفكك صفوف المماليك وضعفها . وقد عرضت نماذج من ذلك إبتداءً بمعركة الريدانية .

خامساً : تقدم المدافع العثمانية وتطورها أمام أسلحة الماليك . مما أدى إلى هزيمتهم في معظم المعارك التي التقوا فيها بالجيش العثماني .

سادساً : حسن الإدارة والتخطيط والقيادة في الجيش العثماني ، والذي كانت تفتقره القيادة المملوكية . ومن ثم أنعدم الولاء والتضحية بين الجيش وقادته في صفوف الماليك .

سابعاً : سعة الجيش العثماني وكفاءته في ميدان القتال في معاركه مع النصاري في شرق أوروبا . ومع الشيعة في فارس . وقد وصلت أنباء تلك الانتصارات والبطولات إلى أسماع الجيش المملوكي . وإلى عامة الناس في الشام ومصر ... مما أرغى عزائمهم . وأضعف قدراتهم ومعنوياتهم لتصورهم أنهم أمام جيش لا يقهر .

نتائج دخول الأتطار العربية

في حوزة العثمانيين

أولاً : إبعاد الخطر البرتغالي الذي كان يهدد البلاد العربية ، والأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف . وتدعم الطابع العثماني الإسلامي في البحر الأحمر حينما ضم السلطان سليمان القانوني كلاً من مصر وسواكن إلى الدولة العثمانية سنة ٩٦٥ هـ / ١٥٥٧ م متنهزاً إندلاع حرب أهلية في الحبشة . ولجحت الدولة العثمانية في تخفيف الضغط البرتغالي علي التجار العرب والإمارات العربية الساحلية ، وعجز البرتغاليون في مد نفوذهم إلى البحر الأحمر وإلى الولايات العربية الداخلية . كما استطاعت الدولة العثمانية تهطيم المحاولات التي بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة نصرانية منهم ومن الأحباش ضد القسري العربية والإسلامية في البحر الأحمر وشرقي إفريقيا .

ثانياً : أضفت الدولة العثمانية علي البلاد العربية الوحدة الكاملة والإستقرار والأمن . وربطت بين أجزائها المتناثرة وخاصة بعد أن ضمت الجزائر سنة ٩٢٦ هـ / ١٥١٩ م بناءً علي رغبة أهلها . وطرابلس سنة ٩٥٩ هـ / ١٥٥١ م ، وتونس سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م . فأصبحت البلاد العربية من الجزائر غرباً إلى العراق شرقاً ومن اليمن جنوباً إلى بلاد الشام شمالاً وحدة واحدة مترابطة تحت ظل الدولة العثمانية المسلحة التي أرسلت الفتوحات الإسلامية إلى أواسط أوروبا تقريباً . وأصبحت رابطة العقيدة من أقوى الروابط التي تربط العربي بأخيه التركي لا فضل لعربي علي أعجمي ولا لأبيض علي أسود إلا بالتقوى .

ثالثاً : إبعاد خطر زحف المذهب الشيعي علي البلاد العربية . وكان الشاه إسماعيل الصفوي الشيعي ينوي نشر هذا المذهب في كافة أرجاء المشرق العربي والقضاء علي المذهب السني ، لا سيما وأنه قد نشر هذا المذهب في أواسط الأناضول قلب الدولة العثمانية . وكان ينوي التفرغ للبلاد العربية منتهزاً ضعف الدولة المملوكية وبدأ باحتلال العراق سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م . ولكن السلطان سليم استطاع في حربه مع الدولة الصفوية في فارس أن يحصر المذهب الشيعي في فارس وأن يقتل من أخطاره . وضم شمال العراق إلي الدولة العثمانية ثم أكمل ابنه سليمان ضم بقية أجزاء العراق إلي الدولة العثمانية سنة ٩٤١ هـ / ١٥٢٤ م . وقد حرصت الدولة العثمانية علي إيجاد نوع من التوازن بين المذهب السني والشيعي في العراق . كما حافظت علي البلاد العربية بعد إسقاط الدولة المملوكية من خطر زحف ذلك المذهب .

رابعاً : أضفت الدولة العثمانية الأمن علي البحر الأحمر وجعلته بحراً إسلامياً مغلقاً في وجه السفن البرتغالية . ثم عسيت هذا المبدأ علي جميع السفن النصرانية فحرمت عليها الإبحار في مياه البحر الأحمر فيما وراء ثغر "المغا" جنوبي ثغر الحديدة في اليمن . إذ كان علي السفن أن تفرغ حمولتها في هذا الميناء . ثم يعاد شحنها علي سفن إسلامية يعمل عليها بحارة مسلمون محبوب أنحاء البحر الأحمر حتي السويس شمالاً . وكان هذا من شدة حفاظ الدولة العثمانية علي أمن وسلامة الأماكن المقدسة في الحجاز ، وقد ظلت الدولة حريصة علي تطبيق هذا المبدأ حتي القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي .

خامساً : يتصف الحكم العثماني للبلاد العربية بأنه حكم غير مباشر . فلم تضيق السلطات العثمانية الخناق علي المجتمعات العربية ، ولم تتدخل إلا في

نطاق ضيق ومحدود لم يتجاوز مجالات معينة هي : توفير الأمن وجمع الضرائب ، والإشراف علي المحاكم الشرعية ، وبناء المساجد والمدارس وتركت للمجتمعات العربية حق إدارة هذه المرافق تحت إشراف الدولة وتوجيهاتها . وتركت معاهد التعليم ومراكز الثقافة العليا ، الدينية والعربية سواء كان ذلك في العراق أو الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو شمال إفريقيا تمارس نشاطها علي النحو الذي كان سائداً قبل دخول الولايات العربية تحت السيادة العثمانية ، وكان كبار العلماء إلي جانب نشاطهم العلمي المتعدد الجوانب ، يمارسون زعامة شعبية علي المجتمعات. لم تحاول السلطات العثمانية أن تتال منها ، بل كانت توقرها ، بل وتخشاها وتعمل علي الإفادة منها عند وقوع أي مشكلة إجتماعية طارئة . ومجمل القول أن السلطات العثمانية تركت المجتمعات العربية لحما علي النحو الذي ألفته من قبل دون تغيير جوهري يس حياتهم . فمثلاً لمجد الحكم العثماني في العراق يتم بالهدوء والإستقرار ، وهدوء الصراع المذهبي بين الشيعة والسنيين فيما عدا الحروب التي كانت تنشب بين الدولة العثمانية وفارس . ولكن لم تتعرض المجتمعات العراقية لمذابح أو عمليات تخريبية . أما في الحجاز فقد أبقى العثمانيون علي حكم الأشراف ، وأبقوا علي الإمتيازات الخاصة بأهل الحجاز مثل الإعفاء من التجنيد والضرائب . وكانت الدولة تحرص حرصاً شديداً علي إرسال حصيلة الأوقاف والإعتمادات المالية المرصودة علي الأشراف وفراء الأماكن المقدسة ، وإصلاح الحرمين الشريفين ، كما كانت تتدخل لإصلاح ذات البين بين الأشراف . أما في اليمن فلم يكن الحكم العثماني مستقراً لفترات طويلة بسبب إختلاف المذهب الديني. فقد كان أهل اليمن شديدي التمسك بأن يكون حكامهم من أتباع مذهب الإمامية الزيدية . وانتهى الأمر بالإتفاق علي تعيين حاكم منهم يعترف

بالسيادة العثمانية على اليمن وما تستتبعه هذه السيادة من التزامات .
أما منطقة الخليج العربي فقد كان الحكم العثماني فيها ضعيفاً حيث
تركزت الدولة سكان المناطق التي امتد إليها الحكم العثماني يزاولون
نشاطهم التقليدي دون تدخل منها . أما في التيايات الثلاث في شمالي
إفريقية فكانت السيادة عليها سيادة إسعية . وكان الدايات والهايات
والولاة يرسلون مبلغاً سنوياً أحياناً . وأحياناً لا يرسلونه . ولكن كان
الجهاد الإسلامي البحري الذي مارسه سكان شمالي إفريقية مع حكاهم
ضد القوي النصرانية الأوروبية يشدهم شداً إلى الدولة العثمانية بصفتها
أكبر دولة إسلامية وأن سلطانها هو خليفة المسلمين .

سادساً : ومن نتائج دخول الأتطار العربية في حوزة العثمانيين زيادة نشاط الفتح
الإسلامي في بلاد شرق أوروبا في عهد السلطان سليمان القانوني .

فبعد أن أمّن العثمانيون البلاد العربية والأماكن المقدسة من أي خطر أجنبي
صليبي . وبعد أن تشرف سلاطين آل عثمان ، بخدمة الحرمين الشريفين . بعد ذلك
تفرغوا للجهاد الإسلامي في بلاد شرق أوروبا حيث وصلت الجيوش العثمانية إلى
أسوار فينا .

المصادر والمراجع

أولاً : وثائق عثمانية غير منشورة :

من المديرية العامة للآثار محفوظات رئاسة الوزراء . إستانبول

BASBAKANLIK ARSIVI GENEL MUDURLU

وهي مصنفة كما يأتي :

وثائق دفتر المهمة : Mühimme Defterleri

أولاً : دفتر المهمة رقم « ٥ » :

١ - الوثيقة رقم (٢١١٢) وتاريخ ١٠ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ

من السلطان سليم إلى ابنه وولي عهد سليمان (إستانبول) .

٢ - الوثيقة رقم (٢١١٤) وتاريخ ١٠ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ

من السلطان سليم إلى ابنه وولي عهد سليمان (إستانبول) .

٣ - الوثيقة رقم (٢١٠٠) وتاريخ ٢٧ رمضان سنة ٩٢٢ هـ

من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلى السلطان سليم في بلاد الشام .

٤ - الوثيقة رقم (٢١٠٥) وتاريخ ١٢ شوال سنة ٩٢٢ هـ

من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلى السلطان سليم في دمشق .

- ٥ - الوثيقة رقم (٢١.٧) وتاريخ ١٢ شوال سنة ٩٢٢ هـ
من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلى السلطان سليم في دمشق .
- ٦ - الوثيقة رقم (٢١٢٧) وتاريخ ٢٨ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ
(لم يذكر اسم المرسل والمرسل إليه) .
- ٧ - الوثيقة رقم (٢١٣٠) وتاريخ ٢٨ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ
(لم يذكر اسم المرسل والمرسل إليه) .
- ٨ - الوثيقة رقم (٢١٣٩) وتاريخ ٧ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ
من السلطان سليم إلى جان بردي .
- ٩ - الوثيقة رقم (٢١٤٧) وتاريخ ٧ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ
(لم يذكر اسم المرسل والمرسل إليه) .
- ١٠ - الوثيقة رقم (٢١٥٠) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان في (إستانبول) .

ثانياً : دفتر المهمة رقم (٦) :

- ١١ - الوثيقة رقم (٢٢٢١) وتاريخ ١٢ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم ستان باشا إلى مقام الصلابة العظمى في إستانبول .
- ١٢ - الوثيقة رقم (٢٢٢٧) وتاريخ ١٣ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
(لم يذكر اسم المرسل) إلى الصدر الأعظم ستان باشا . غزة .

- ١٣ - الوثيقة رقم (٢٢٣٠) وتاريخ ٢٧ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٤ - الوثيقة رقم (٢٢٣٥) وتاريخ ٢٨ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٥ - الوثيقة رقم (٢٢٣٨) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٦ - الوثيقة رقم (٢٢٤٩) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٧ - الوثيقة رقم (٢٢٥٠) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٨ - الوثيقة رقم (٢٢٦١) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٩ - الوثيقة رقم (٢٢٦٣) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٢٠ - الوثيقة رقم (٢٢٦٥) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .

ثالثاً : دفتر المهمة رقم (٧) :

- ٢١ - الوثيقة رقم (٣٣١٠) وتاريخ ٣ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من السلطان سليم إلي ابنه سليمان في إستانبول .
- ٢٢ - الوثيقة رقم (٣٣١٢) وتاريخ ٣ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من السلطان سليم إلي ابنه سليمان في إستانبول .
- ٢٣ - الوثيقة رقم (٣٣١٥) وتاريخ ١ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلي ابنه سليمان في إستانبول .
- ٢٤ - الوثيقة رقم (٣٣١٧) وتاريخ ١ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من أمير الأناضول مصطفى باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٢٥ - الوثيقة رقم (٣٣٢٨) وتاريخ ١ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من أمير الأناضول مصطفى باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٢٦ - الوثيقة رقم (٣٣٣٠) وتاريخ ٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من أمير الأناضول مصطفى باشا (لم يذكر إسم المرسل إليه) .
- ٢٧ - الوثيقة رقم (٣٣٣٧) وتاريخ ٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الوزير الثاني يونس باشا (لم يذكر إسم المرسل إليه) .
- ٢٨ - الوثيقة رقم (٣٣٤٠) وتاريخ ٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الوزير الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٢٩ - الوثيقة رقم (٣٣٤٥) وتاريخ ٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الوزير الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .

- ٣ - الوثيقة رقم (٣٤٥٠) وتاريخ ٦ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلى ابنه سليمان (إستانبول) .

رابعاً : دفتر المهمة رقم (٨) :

- ٣١ - الوثيقة رقم (٥٤٢٠) وتاريخ ٦ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان .
- ٣٢ - الوثيقة رقم (٥٤٢٢) وتاريخ ٩ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان .
- ٣٣ - الوثيقة رقم (٥٤٣٧) وتاريخ ١٠ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان .
- ٣٤ - الوثيقة رقم (٥٤٤٠) وتاريخ ١٠ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى أمير دمشق وقاضي القضاة .
- ٣٥ - الوثيقة رقم (٥٤٤١) وتاريخ ١١ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان .
- ٣٦ - الوثيقة رقم (٥٤٤٣) وتاريخ ١١ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (لم يذكر اسم المرسل إليه) .
- ٣٧ - الوثيقة رقم (٥٤٤٨) وتاريخ ١٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى أمير دمشق وقاضي القضاة .

- ٣٨ - الوثيقة رقم (٥٤٥٠) وتاريخ ١٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلي قاضي قضاة دمشق .
- ٣٩ - الوثيقة رقم (٦٥٥٣) وتاريخ ١٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ
موقعة من أحد الكتاب (لم يذكر اسمه) إلي السلطان سليم .
- ٤٠ - الوثيقة رقم (٦٥٥٧) وتاريخ ١٦ محرم سنة ٩٢٣ هـ
موقعة من أحد المحققين (لم يذكر اسمه) إلي السلطان سليم .

خامساً : دفتر المهمة رقم (٩) :

- ٤١ - الوثيقة رقم (٦٥٦٠) وتاريخ ١٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلي ابنه سليمان (إستانبول) .
- ٤٢ - الوثيقة رقم (٦٥٦٣) وتاريخ ١٦ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلي أمير دمشق وقاضي القضاة .
- ٤٣ - الوثيقة رقم (٦٥٦٧) وتاريخ ١٧ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٤٤ - الوثيقة رقم (٦٥٧٠) وتاريخ ٢٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٤٥ - الوثيقة رقم (٦٥٧٣) وتاريخ ٢٣ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي إستانبول (لم يذكر اسم المرسل إليه).

- ٤٦ - الوثيقة رقم (٦٥٨٠) وتاريخ ٩ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من غانم السيفي إلي السلطان سليم .
- ٤٧ - الوثيقة رقم (٦٥٨٢) وتاريخ ٢١ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلي ابنه سليمان (إستانبول) .
- ٤٨ - الوثيقة رقم (٦٥٨٤) وتاريخ ٢٣ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٤٩ - الوثيقة رقم (٦٥٨٨) وتاريخ ٢٣ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من عاطف باشا إلي السلطان سليم (القاهرة) .
- ٥٠ - الوثيقة رقم (٦٥٩١) وتاريخ ٢٣ صفر سنة ٩٢٣ هـ
(لم يذكر اسم المرسل) إلي السلطان سليم (القاهرة) .
- ٥١ - الوثيقة رقم (٦٦٢٠) وتاريخ ٢٥ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلي ابنه سليمان (إستانبول) .
- ٥٢ - الوثيقة رقم (٦٦٣١) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٥٣ - الوثيقة رقم (٦٦٣٩) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ
(لم يذكر اسم المرسل) إلي ولي العهد سليمان (إستانبول) .
- ٥٤ - الوثيقة رقم (٦٦٤٧) وتاريخ ٢٩ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي أمير دمشق وقاضي القضاة .

سادساً : دفتر المهمة رقم (١٠) :

- ٥٥ - الوثيقة رقم (٦٧٢٠) وتاريخ ٢٥ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان .
- ٥٦ - الوثيقة رقم (٦٧٣٧) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ
تقرير من الصدر الأعظم يونس باشا إلى السلطان سليم .
- ٥٧ - الوثيقة رقم (٦٧٤٣) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ
إلى السلطان سليم (لم يذكر إسم المرسل) .
- ٥٨ - الوثيقة رقم (٦٧٥٦) وتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ
صور من هذه الرسائل مرفوعة إلى أمير دمشق .
- ٥٩ - الوثيقة رقم (٦٧٦٩) وتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ
تقرير مرفوع إلى السلطان سليم (لم يذكر إسم المرسل) .
- ٦٠ - الوثيقة رقم (٦٧٧٧) وتاريخ ٢٩ صفر سنة ٩٢٣ هـ
تقرير مرفوع إلى الصدر الأعظم يونس باشا (لم يذكر إسم المرسل) .

سابعاً : دفتر المهمة رقم (١٣) :

- ٦١ - الوثيقة رقم (٧٣٢٠) وتاريخ ٤ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من جان بردي الغزالي إلى السلطان سليم .

- ٦٢ - الوثيقة رقم (٧٣٣٨) وتاريخ ٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلى جان بردي الغزالي .
- ٦٣ - الوثيقة رقم (٧٣٥١) وتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
صورة رسالة من خاير بك إلى السلطان سليم .
- ٦٤ - الوثيقة رقم (٧٣٥٨) وتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
صورة رسالة من جان بردي الغزالي إلى السلطان سليم .
- ٦٥ - الوثيقة رقم (٧٣٧١) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلى مقام الصدارة في إستانبول .

ثامناً : دفتر المهمة رقم (١٥) :

- ٦٦ - الوثيقة رقم (٧٥٤١) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه وولي عهده سليمان .
- ٦٧ - الوثيقة رقم (٧٥٤٣) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى أمير دمشق وقاضي القضاة .
- ٦٨ - الوثيقة رقم (٧٥٥٢) وتاريخ ٢٠ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلى مقام الصدارة في إستانبول .
- ٦٩ - الوثيقة رقم (٧٥٦٣) وتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلى ابنه وولي عهده سليمان .

- ٧ - الوثيقة رقم (٧٥٧١) وتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلى أحمد باشا (إستانبول) .
- ٧١ - الوثيقة رقم (٧٥٨٩) وتاريخ ٢٦ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى الوزير محمد باشا .

تاسعاً : دفتر المهمة رقم (١٦) :

- ٧٢ - الوثيقة رقم (٨١٠٠) وتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه وولي عهده سليمان .
- ٧٣ - الوثيقة رقم (٨١٢٢) وتاريخ ٢٧ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه وولي عهده سليمان .
- ٧٤ - الوثيقة رقم (٨١٢٧) وتاريخ ١٠ شوال سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (دمشق) إلى ابنه وولي عهده سليمان (إستانبول) .
- ٧٥ - الوثيقة رقم (٨١٤١) وتاريخ ١٢ شوال سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (دمشق) إلى ابنه وولي عهده سليمان (إستانبول) .
- ٧٦ - الوثيقة رقم (٨١٤٧) وتاريخ ١٥ شعبان سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (دمشق) إلى ابنه وولي عهده سليمان (إستانبول) .
- ٧٧ - الوثيقة رقم (٨١٥٣) وتاريخ ١٧ شعبان سنة ٩٢٣ هـ
إلى مقام الصدارة العظمى في استانبول (لم يذكر اسم المرسل)

- ٧٨ - الوثيقة رقم (٨١٦١) وتاريخ ٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلى أمير دمشق وقاضي القضاة .
- ٧٩ - الوثيقة رقم (٨٢١٠) وتاريخ ٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم محمد باشا (القاهرة) إلى إستانبول .
- ٨٠ - الوثيقة رقم (٨٢٢٣) وتاريخ ٢٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى والي مصر الجديد خاير بك .
- ٨١ - الوثيقة رقم (٨٢٣٧) وتاريخ ١٥ شوال سنة ٩٢٣ هـ
من الشاه إسماعيل الصفوي إلى السلطان سليم .

ثانياً : المصادر والمراجع

- ٨٢ - أحمد حسين ، موسوعة تاريخ مصر الجزء الثالث ، دار الشعب .
- ٨٣ - أحمد فؤاد متولي (دكتور) ، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦ م .
- ٨٤ - أحمد شلبي (دكتور) ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، الجزء الخامس ، النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م .
- ٨٥ - إبراهيم العبيدي ، قلائد العقيان في مفاخر دولة آل عثمان طبع في مصر سنة ١٣١٧ هـ .
- ٨٦ - إبراهيم طرخان (دكتور) ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، الخرطوم ١٩٥٩ م .
- ٨٧ - ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور . طبع المطبعة الكبرى الأميرية بمصر ، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى ١٣١١ هـ .
- ٨٨ - ابن زنبيل ، آخر المماليك " واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني " . تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٨٩ - ابن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، القسم الثاني ، تحقيق : محمد مصطفى طباعة السدار المصرية ، ١٩٦٤ م .

- ٩٠ - ابن طولون ، أعلام السوري . لتحقيق عبد العظيم خطاب . القاهرة .
١٩٧٣ م .
- ٩١ - ابن الخطيب ، در الحبيب في تاريخ أعيان حلب ، ج ١ ، ٢ من القسم الأول
لتحقيق محمود الفاخوري . دمشق ١٩٧٢ -
١٩٧٣ م .
- ٩٢ - ابن الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، الجزء الأول ، بيروت ،
١٩٤٥ م .
- ٩٣ - جلال يحيى (دكتور) ، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر طبع المكتب
الجامعي الحديث بالأسكندرية ، ١٩٨٢ م .
- ٩٤ - حسن عثمان (دكتور) ، تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧ -
١٧٩٨) في كتاب المجلد في التاريخ المصري ،
نشر د. حسن إبراهيم حسن ، القاهرة ،
١٩٤٢ م .
- ٩٥ - السيد وجب حراز (دكتور) ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (١٨٤٠ -
١٩٠٩) القاهرة ، معهد البحوث والدراسات
العربية سنة ١٩٧٠ م .
- ٩٦ - سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) ، العصر المملوكي في مصر والشام ،
دار النهضة العربية ، مصر ، الطبعة الثانية ،
١٩٧٦ م .
- ٩٧ - عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، دار
الجليل ، بيروت .

- ٩٨ - عبد العزيز محمد الشناوي (دكتور) ، الدولة العثمانية دولة إسلامية
مفتري عليها ، ج ١ ، مكتبة الأجلو المصرية ،
القاهرة ، ١٩٨٠ م .
- ٩٩ - عبد الرحمن زكي ، القاهرة وتاريخها وآثارها ، مطبعة الدار المصرية ،
١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ١٠٠ - عبد المتعم ماجد ، طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، مطبعة
الأجلو المصرية ، ١٩٧٨ م .
- ١٠١ - عمر عبد العزيز عمر (دكتور) ، دراسات في تاريخ العرب الحديث (١)
الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية
القرن الثاني عشر ، دار النهضة العربية للطبعة
والنشر ، بيروت .
- ١٠٢ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) ، تاريخ العرب الحديث
والمعاصر ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٢ هـ /
١٩٨٢ م .
- ١٠٣ - عبد الكريم رافق (دكتور) ، العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ - ١٩١٦ ،
الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٧٤ م .
- ١٠٤ - فائق بكر الصواف (دكتور) ، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم
الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٣ - ١٣٣٤ هـ /
١٨٧٦ - ١٩١٦ م ، القاهرة ، مطبعة سجل
العرب ، ١٩٧٨ م .
- ١٠٥ - كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين
فارس وصنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ،
بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٨ م .

١.٦ - محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار الجبل ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

١.٧ - محمد عبد المنعم السيد الرائد ، الفزد العثماني لمصر ونتائجه علي الوطن العربي ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢م .

١.٨ - منسي ، محمود صالح (دكتور) ، حركة البقظة العربية في الشرق الأميوي ، دار الإتحاد العربي للطباعة ، الناشر : دار الفكر العربي ، ١٩٧٨م ، الطبعة الثانية . دراسات في تاريخ الشرق العربي (١) .

١.٩ - المير وليام موير ، تاريخ دولة الماليك في مصر . ١٢٦ - ١٥١٧ م ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، مطبعة المعارف المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٢٤م .

١١ - هند اسكندر ، تاريخ مصر ، دار المعارف بمصر .

١١١ - محمد بن أبي السرد البكري الصديق ، الكواكب السائرة في أختار مصر والقاهرة ، (مخطوط بالمتحف البريطاني بلندن تحت رقم Additional MS 9973 ويقع في ١٣٢ ورقة) .